اليأس خيانة

اسم الرواية : **اليأس خيانة**

اسم المؤلف: **أحمد عبد الفتاح أحمد صابر.**

تدقيق لغوي: **ريهام الغنام .**

تصميم الغلاف: **ضياء إبراهيم .**

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم.**

رقم الإيداع: **٢٠٢١/٢٢٦٩**

الترقيم الدولي: **٩٧٨٩٧٧٨٤٤١٠٥٠**

جميع الحقوق محفوظة للناشر

اى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

Email: ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

أحمد عبد الفتاح أحمد صابر

اليأس خيانة

إبهار
للنشر و التوزيع

إهداء

من لم يشكر الناس لم يشكر الله، شكرًا لك، فلولاك لظلت كتاباتي يعلوها التراب

شكرًا لأنك المرشد والناقد والمشجع، شكرًا لأنك الشمعة التي تحترق حتى أرى النور.

وشكرًا لكل ذي فضل على، وجزى الله خيرا كل من ساهم في هذا العمل ولو بأبسط عبارات التشجيع.

شكرا لكم....

وجزاكم الله خير الجزاء

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله قبل كل شيء وبعد كل شيء، فهو الله ذو المن والجود والعطاء، فاللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، واللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه عدد كمال الله وكما يليق بكماله.

ثم أما بعد...

قبل أن يخط قلمي فكرت ملياً في ماهية الرواية التي سأطل بها على القاريء الكريم، وبعد بحث وتحري رأيت إنتشار اليأس وتفشيه حتى أصبح المتفائل شاذًا يقابل بالسخرية والتهكم، فقررت أن أعرض من خلال أفكاري صورة لهزيمة اليأس واستنكاره أياً كانت الظروف، فطالما يدق قلبك ويعلو وينخفض صدرك، فأنت قادر على تغيير الواقع وهزيمة اليأس، وتذكر دائماً أن اليأس خيانة.

وأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن ينفع بنا ويجعلها رواية تفيد القارئ ولا تضره، وتصلح بقدر المستطاع ما أفسده المتشائمون، وتقوي الإرادة والعزيمة، وتطرح اليأس بعيدًا.

الكاتب

احمد عبد الفتاح

(١)

وليد ... ذلك الشاب الطموح ذو الثامنة والعشرين عامًا، وسيم ذو شعرٍ ناعم، ليس بالطويل ولا بالقصير بل هو الاعتدال بعينه، عسلي العينين، ساطع المحيا، بشوش الوجه، مرح لأبعد الحدود، يحب المزاح، وقد أكرمه الله بعملٍ جيد في إحدى مطابع الكتب، وكان سعيدًا جدًّا بهذا العمل لأن عائده المادي جيد، إلي جانب أنه يحب القراءة والاطلاع، وعمله في المطبعة ييسر له ذلك.

وكعادة وليد يستيقظ ليؤدي صلاة الفجر ثم يعكف على كي ملابسه، وإعداد إفطاره دون أن يوقظ والدته لتجهز له طعامه، فهو اعتاد على تحمل المسؤولية في أموره الصغيرة والكبيرة، ومثل كل يومٍ تستيقظ والدته صفية ذات السبعة وأربعين عام، فتجده قد أنهى كل شيءٍ بنفسه وتعاتبه على تكليف نفسه فوق ما يطيق أو هكذا تتصور -وهذا نابع من

طيبة أمه وحنانها- فيداعبها بقوله: "أنت ملكة، والملكة تُخدم ولا تَخدم."

ثم يطبع على جبينها ويديها قبلات دافئة، وعلى صوت حديثهما يستيقظ والده والذي قد تجاوز عمره الستين، وقد حاله سنه إلى التقاعد، فيلقي عليهما تحية الصباح معطرة بالدعاء لهما بدوام البركة والسعادة، يتجه وليد نحو والده يعانقه ويقبل يديه ثم أردف قائلًا:

- بارك الله فيك، ولا حرمنا الله منك.. نِعم الأب، ونعم المربِي.

بعد انتهاء هذا المشهد الأسري، استأذن وليد واتجه إلى غرفته فأحضر حقيبة عمله ثم ودعهم وانصرف.

خطوات يمشيها وليد بعد خروجه من منزله ليقف في محطة انتظار الأتوبيس الذي لم يلبث أن جاء باكرًا كعادته، فيركب وليد وسط هدوء الراكبين الذين غلب النوم معظمهم والخمول باقيهم، فيجلس على كرسيٍّ خالٍ وينظر من نافذته -كما يحب كثيرًا- وعندما انطلق الأتوبيس وتعمق داخل الشوارع شاهد وليد أهل الليل يلملمون سهرهم ويجمعون ما تبقى من ملابسهم ويمسحون أثر الشرب من على أفواههم، فيدعو الله لهم بالهداية وصلاح الحال.

وعلى الجانب الآخر، يرى أهل الصباح بينما كانوا في طريقهم نحو أعمالهم، ومنهم الذين يتوقفون عند عربات الفول ليستمدوا منها الطاقة اللازمة لعناء يومٍ طويل، ونرى المقاهي تتبادل فيها مناوبات العمال، بل

والزبائن أيضًا؛ فعمال الليل وزبائنه يختلفون تمامًا عن عمال النهار وزبائنه.

يقطع تأملات وليد للعالم الخارجي، سيارة أحدث موديل تندفع يمينًا ويسارًا، وصرخات اللهو صادرة منها، وكلما زادت سرعتها زاد صوت الصراخ الصادر منها، وظلت تتقدم حتى سارت بموازاة الأتوبيس .. رأى وليد بداخلها مزيجًا من الشباب والفتيات الذين اختلط لحمهم، فما عدت تعرف أيهم يد من! وأيهم قدم من! إنه بالفعل منظر مشين وغير لائق بل ولا يمت للأخلاق بصلة، وهنا تذكر قول النبي صلي الله عليه وسلم عندما قال: "إذا لم تستحِ، فاصنع ما شئت."

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما تذكر قول أحد فلاسفة اليونان قديمًا: "إن الثراء الفاحش يفسد الأخلاق كما يفسدها الفقر المدقع."

وقعت عين وليد على عين السائق المتهور، والذي كان في مثل سن وليد تقريبا وكان يرتدي قميصًا أسوداً رسم عليه جمجمة بيضاء، وتلتف حول رقبته سلسلة متدلية كبيرة الحجم، وكانت عينه حمراء فاقع لونها لا تسر الناظرين، وقد نظر باحتقارٍ وازدراءٍ إلى وليد وكأنه يقول:"تبًّا لكم أيها الفقراء، أنتم حثالة المجتمع، وقد خلقتم فقط لخدمتنا."

ويبدو أن هذا الثري يعيش بأفكار اليوتوبيا والتي ترى أن الفقراء عبء على المجتمع الثري وأنهم حثالة البشر.

تلك النظرية قديمة الأصل، ترجع أصولها القديمة إلى اليونان عندما ظن المجتمع اليوناني أنه الصفوة، وأن الشعوب كلها دونه وأقل منه، وكذلك بنو إسرائيل حينما قالوا: "نحن شعب الله المختار، نحن أبناء الله وأحباؤه."

ثم ما لبثت أن خمدت هذه النظريات والأقاويل، ولكن من جديد يعيد الباطل نفسه، وهذه المرة في ألمانيا النازية والتي ادعت أيضًا أنها أفضل الشعوب والجند الذي لا يُقهر ثم ما لبثت أن انتهت بهزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

إنها نظرية تنظر في استعلاءٍ وتكبر لمن دونهم سواء من الناحية الدينية كاليهود أو الناحية العقلية كاليونان أو حتى من الناحية العسكرية كألمانيا، تذكر وليد كل ذلك عندما رأى نظرة السائق، فالشيء بالشيء يذكر، لكن رد وليد على أفكار السائق ومعتقداته بعينيه أيضًا قائلًا:

- ألم تقرأ قول الله سبحانه وتعالي: إن أكرمكم عند الله أتقاكم ؟ وقول النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم: ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

وعندما استلمت عين السائق المتهور رد وليد الهادم لآرائه ومعتقداته، اشتعل نارًا واستشاط غضبًا، و وليد ما زال ينظر إليه، فما كان له أن يخشى من ذلك المتعجرف بل وأهدى إليه ابتسامة صافية بصفاء روحه

ونقاء أفكاره، لكن ابتسامتك هذه يا وليد بدلًا من أن تحيي فيه التواضع وتعظم عنده المساواة نرى أنها قد أصابت كبرياءه، وهتكت كرامته، وقصفت أبراج عنجهيته، فأسقطتها أرضًا، للأسف يا وليد ابتسامتك هذه تمت إساءة فهمها.

أثناء تركيز السائق مع وليد وترْكِه لأمر الطريق، نظر فجأة فوجد رجلًا يمر أمامه كاد أن يدهسه بالسيارة فتفاداه بصعوبة، وبفرملة صرخت على إثرها الإطارات صرخًا أحدث دويًّا وتركت آثاره على الطريق لكن الله قد كتب لهذا الرجل السلامة في بدنه أما روحه فكادت تفارقه من هول الحدث.

التفت وليد مخرجًا رأسه من النافذة ليطمئن بعينيه على الرجل، فوجده قد سجد على الرصيف شكرًا لله على نجاته وسريعًا تجمع المارة حوله ليطمئنوا عليه، ونتيجة لهذا الحادث غير المكتمل صمت الصخب في سيارة الأثرياء وتصاعدت الأنفاس وتوقف الغناء وفتحت الأفواه من هول المنظر وتوقفت السيارة بعيدًا كأنهم يستجمعون قواهم، فقد زال مفعول الليل، فالعقل إنما يخضع لهيمنة المؤثر الأقوى، فغلب عليهم هول الحادث، ثم ما لبثوا أن انهالوا على السائق الثري بالتأنيب وعبارات الغضب وعدم الرضا، فلم يجب، ولكن كلامهم وتأنيبهم كان بمثابة الشعلة التي أحرقت أطنان الكره، وجالونات الحقد، وكيلوجرامات التعسف بداخل السائق، فتغير لون وجهه وأصبح كأنه

شيطان مريد، ومارد عنيد تخرج من عينيه النار وجسده يغلي كأنه بركان، وقد آن لهذا البركان أن يثور وينفجر ويدمر ما حوله.

فجأة قطع أصوات العتاب والتأنيب صوت المحرك، والذي انطلق بقوة تفوق قوته، فأصدر صوتًا أسكن الرعب القلوب، وطوق الرقاب بالموت، ولفح الأجساد بالأدرينالين، الكل يتساءل؛ ماذا سيفعل ذلك المجنون؟ هل سينتقم منا على ما قلناه؟! هل هذا يستدعي أن يلقينا للموت حتفًا؟!!

كل هذا يجول في أذهانهم وأنا أؤيدهم في أفكارهم هذه، فمن يرى وجه السائق يرى ذلك بوضوح، وتعالت الأصوات: توقف، توقف أنزلنا، أنزلنا.

لكن أسْمعت لو ناديت حيًّا ولا حياة لمن تنادي.

كل هذا يدور في سيارة الأثرياء و وليد لا يعرف عنه شيئًا!كما لا يعرف أن السائق يراه السبب في الحادث، وأنه السبب في تلقى عبارات اللوم والعتاب الغاضب، وليس لمن في مثل مستواه الاجتماعي أن يتلقاه وقد أقسم لنفسه أن يثأر لها.

لك الله يا وليد .

اقترب الأتوبيس من مكان عمل وليد فاتجه نحو الباب للنزول، وعندما توقف الأتوبيس نزل وليد تاركًا خلفه ما كان كأنه لم يكن، ويمر ليعبر الشارع، وما أن لمح السائق الثري وليد يعبر الطريق حتى غمرته السعادة

وتغَشاه السرور، وضغط على دواسة البنزين حتى التصقت بقاع السيارة وانطلق بسرعته القصوى صوب وليد .

هنا تعالت الأصوات من جديد بداخل السيارة: انتبه، هدئ السرعة، هناك رجل يمر!

لكنه أجابهم بصمته كأنه يخبرهم أنه السبب في الحادث، وهو السبب في إفساد جمال السهرة وتحويلها إلى ذعرٍ وضيق.

وتزداد سرعة السيارة حتى كادت أن تطير، ولما رآها وليد حاول أن يفرَّ ليتفاداها، لكن هيهات هيهات! فما لبثت أن صدمته، ولفرط سرعتها حملته على زجاجها، وفي هذه الأثناء التقت العينان عن قربٍ وكثب، عين غمرتها نشوة الانتقام والانتصار، وعين غمرها الضعف والانكسار، عين الكره يحاصرها والحقد يعاصرها والتعالي يعمرها، وعين الأمل مرعاها والحب مسعاها والخُلق كساها، شتان بين العينين! شتان شتان! وفي هذه اللحظة تحولت نظرات وليد إلى نظرات تمني، فهو يتمنى أن يضغط السائق على المكابح، فما سره ما رأى، فقد رأى التكبر والتعالي وسوء تربية الأهالي، رأى الأخلاق باكية حزينة، ورأى تفشي المجن والرذيلة.

وكأن السائق قد قبل له هذه الأمنية، فهو يعرف أنها الأخيرة، فضغط فجأة على المكابح، فرأى وليد يبتعد عن الزجاج مفارِقَهُ، وامتد بينهما خيط بصري، قرر وليد قطعه وأغلق عينيه منتظرًا وقع الصدمة والارتطام بالأرض، وقد وقع ما كان ينتظر.

اصطدم بالأرض صدمة قوية أصابت الطريق بتشوهات آلمتها، فدفعته عنها ليحلق من جديد مرتفعًا عنها ثم ينزل من جديد وسط تقلب جسده على الطريق حتى اكتسى بسيل دمه الذي له ريح المسك ولون الورود، وظل يتقلب جسده صعودًا وهبوطًا، ارتفاعًا وانخفاضًا على أرض الطريق حتى أنهت الصدمات عزم الارتطام بعد مسافةٍ طويلة، وببرود أعصاب ومكابرة يتقدم السائق الجاني نحو الضحية، وعندما وقفت السيارة بجواره ظهرت عليه ابتسامة شيطانية تعلوها روح النصر الملطخ بالدماء ثم ما لبث أن تحرك كالبرق الخاطف وصوت الرعد القاذف حتى غاب عن رؤية الدماء التي لم تغب عن إطاراته أو حتى عن خيالاته.

لك الله يا ذا الممدد على الطريق، لك الله يا ذا الفتى.

قرأت في عيني وليد قبل أن تنغلق قول الشاعر:

وجدت المروءة تبكي فقلت علام تنتحب الفتاةُ؟

فقالت ومالي لا أبكي وأهلي دون خلق الله ماتوا

انغلقت عينا الفتى وانطفأت الطيبة ورحلت الأخلاق وطار الأمل محلقًا، وبكى التفاؤل، وتلاشت البسمة، إن ما نراه هو المشهد الأخير في حياة هذا الفتى، وأنا أتعجب، لِمَ لَمْ يأتِ ملك الموت بعد؟! ما اعتاد عزرائيل على التأخير، فهو دائمًا ما يأتي في موعده، وظللت منتظرًا، وقد أتى.

(٢)

لقد أتى..

لكنه ليس ملك الموت، إنه إبراهيم شاب في الثالثة والثلاثين من عمره، جميل الملامح، يرتدي بدلة سوداء، والذي توقف بسيارته ونزل مهرولًا نحو هذا الطريح أرضًا، وضع رأسه على قلبه، فسمع أشباه دقات، فحمله كلمح البصر نحو المستشفى.

إذًا فما تأخر ملك الموت كما اعتقدنا، لكن موعده مع هذه الروح الطاهرة لم يحن بعد، وبالرغم من أن كل الشواهد تؤكد عدم نجاتها، فلله إرادة تعلو الأسباب، وتفوق الشواهد، إذًا وليد ما زال حيًّا...

تقف السيارة أمام المستشفى ويهرول إبراهيم نحو الطوارئ داعيًا، فيلبي الأطباء والممرضون على الفور ويحملون وليد على النقالة بسرعة إلى غرفة العمليات، وها هو الباب ينغلق والصرخات تتعالى: أحضروا الدكتور علي على الفور.

ويرتفع صوت المذياع الداخلي: يرجي من الدكتور علي التوجه إلى غرفة العمليات فورًا... ويكرر المذياع نبأه من جديد: على الدكتور علي التوجه إلى غرفة العمليات فورًا.

وعندما استقبلت آذان الدكتور علي الرسالة، اتجهت قدماه مسرعتين نحو غرفة حفظت طريقها وألِفت ممراتها، وما أن وصل، دفع الباب بسرعة،فرأى الدماء تغطيه، وآخر ما سمعته كان: اقطعوا القميص وقصوا الشعر.

وهنا انغلق الباب وعم الصمت وخيم السكون، وكسا الهدوء أرجاء المكان، في هذه الأثناء لم يتمالك إبراهيم أعصابه التي خارت من هول المنظر، ولم تتحمل قدماه أن تحمله أكثر من ذلك، فهي في حاجةٍ لمن يحملها، جلس على الأرض وآثار الدم تكسوه، انفتح باب العمليات فجأة وخرجت ممرضة تحمل هاتف وليد وحافظة نقوده ثم أعطتها لـ إبراهيم الذي ارتعب لفرط سرعتها، وظن أنه مات، فسألها بخوف: هل مات؟

ردت الممرضة مقطبة جبينها: أعوذ بالله يا أستاذ، تفاءل خيرًا،إنه ما زال حيًّا.

حمد إبراهيم الله.. فسألته:

– هل هو أخوك؟

فأجابها:

– لا.

– هل هو صديقك؟

فأجابها نافيًا أيضًا:

– لا.

وهنا استنفدت الممرضة توقعاتها، والتي ثبت بالسؤال والإجابة أنها خطأ، فقالت:

– إذًا ما صلتك به؟؟؟

ولم تعطِ الفرصة لـ إبراهيم ليجيب، فبادرته بغضبٍ قائلة:

– أأنت المتهور الذي صدمه؟!!

روع السؤال إبراهيم وقتلته خوفًا تعبيرات وجه الممرضة وتوجيهها أصابع الاتهام نحوه، فأجاب بخوف البريء من الاتهام:

– لست أنا، لست أنا، لقد وجدته ملقى على الأرض في عرض الشارع، فتوقفت بسيارتي وحملته إلى هنا.

سمعت الممرضة ما قاله، ويبدو أنها اقتنعت به، فسكتت وانصرفت إلى الداخل من جديد وابتلعتها الغرفة كسابقيها، ومن جديد يحاول إبراهيم أن يلتقط أنفاسه التي تتصاعد كأنها خيل أرهقها السباق، وعندما هدأ واتزن نسبيًّا وقعت عيناه على الهاتف الذي جلبته الممرضة، وقد كانت به بعض الكسور والتشوهات وبالرغم من ذلك كان بإمكان إبراهيم أن

يفتحه وقرر أن يتصل بأهله أو أحد أقاربه، ظل يبحث في الأسماء حتى وصل إلى رقم يحمل اسم أبي .

تنفس إبراهيم بعمقٍ واستجمع قواه الخائرة ثم اتصل وعندما رأى متولي هاتفه يرن فتح قائلًا بتهكم:

– لابد أنك نسيت شيئًا أيها الذكي.

لكنه سمع صوتًا غير متوقع، صوتًا غريبًا، غير مألوف، يلقي سلام الله قائلًا:

– السلام عليكم، كيف حالك سيدي؟

قالها متلعثمًا كأنها ثقلت على لسانه، فقالها بصعوبة.

تغيرت تعبيرات وجهه متولي فقد راح ما فيها من تهكمٍ ومزاح، شعر كأن حدثًا غريبًا، وخطبًا مريبـًا قد وقع، لكنه أجاب:

– وعليكم السلام.

ثم أسرع مبادرًا: من أنت يا بني؟!!

فأجابه والعرق يتصبب من جبينه:

– أنا إبراهيم .

– إبراهيم ! من إبراهيم ؟!

رددها متولي بقلق، فهو يعرف كل أصحاب وليد وليس من بينهم إبراهيم ..

– أين وليد ؟ وهل حدث له شيء؟!

استجمع إبراهيم قواه والعرق يتصبب من جبينه:

– لا تقلق يا عم، الأمر بسيط، أعتقد أن سيارة صدمته أثناء عبوره للشارع، ووجدته فحملته بسيارتي إلى المستشفى لكن إصابته بسيطة.

انتفض متولي مما سمع، وصاح قائلًا:

– في أي مستشفى هو؟!

– أخبره إبراهيم باسم المستشفى وعنوانها وأنه في غرفة العمليات.

ارتدى متولي ثيابه مهرولًا فزعًا، وأثناء خروجه من الباب مندفعًا، كانت زوجته صفية قد أنهت شراء متطلباتها وتفتح الباب، فرأت القلق على ملامح متولي .. سألت بفزع:

– إلى أين تذهب؟ ماذا حدث؟!!

فأخبرها أن أحد زملائه قد أصيب بجلطة، وتم نقله إلى المستشفى، ويجب أن يذهب ليطمئن عليه.

اقشعر جسد المرأة أسًى وحزنًا ثم دعت له بالنجاة والشفاء، فأمن متولي على دعائها أثناء ذهابه السريع. وصل متولي إلى المستشفى وصعد سريعًا نحو العمليات ينادي: وليد .. أين وليد ؟!

عرف إبراهيم أنه هو، فتقدم نحوه قائلًا: أنا إبراهيم من اتصلت بك.

– أين ولدي؟ أريد أن أراه.

هدأ إبراهيم من روعه قائلًا:

لا تقلق، إنه بخير، لكنه يجري عملية جراحية بسيطة.

انهالت دموع متولي من عينيه، وظل يدعو ويبتهل قائلًا: "اللهم اشفه وعافه، اللهم احفظه بحفظك يا رحمن، اللهم إنك تعلم أنه بنا بار، ولنا مطيع، وعلينا رحيم، اللهم إنه أنيسنا ووحيدنا، اللهم إني راضٍ عنه، فارض عنه، ونجه يا الله."

وظل يدعو ويبتهل ويقرأ ما تيسر له من كتاب الله حتى فتحت غرفة العمليات بعد خمس ساعات متواصلة، ويخرج منها الدكتور علي منهكًا متعبًا فأسرعا إليه سائلين عن حال وليد .

فأجابهم الدكتور علي :

– قدر الله وما شاء فعل، لقد استطعنا وقف النزيف بأعجوبة.

فردد متولي شاكرًا:

– الحمد لله.. الحمد لله.

صمت الدكتور علي ونكس رأسه أرضًا، فرأى متولي في عينيه أخبارًا ليست سارة تأبى الخروج، اقترب منه وأمسك يده يهزه قائلًا:

– ماذا هناك يا دكتور؟

قالها مرتعبًا من الإجابة بينما يمسح عَبراته ويدعي القوة.

رفع الدكتور علي رأسه ببطءٍ وبأسفٍ شديدٍ قائلًا:

– لقد تعرض لإصابة في عموده الفقري.

صاح متولي قائلًا:

– لا أفهمك يا دكتور، ماذا يعنى هذا؟!!!

فقال علي مضطربًا من رد فعل الرجل:

– يعني أنه أصيب بشللٍ في نصفه السفلي، ولن يستطيع السير على قدميه من جديد.

رحمك الله يا متولي فهذا ليس خبرًا سيئًا، بل صاعقة رعدية تفتك بأعتى الرجال وأقسى القلوب، ما إن سمع متولي ما قاله الدكتور حتى انفجر باكيًا كالطفل الصغير بكاءً هستيريًّا مرًّا شديدًا، وظل يهز الدكتور علي صارخًا:

– كيف لهذا الشاب ألا يمشي من جديد؟!!!

كيف سيقضي سنواته الباقية؟!!!

أخبرني بالله عليك؟؟؟

لابد من وجود عملية أو علاج، أخبرني أن هناك أمل.

– الأمل في الله وحده.

ظل يردد في شهيقه وزفيره:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، أريد أن أراه.. أريد أن أرى ابني يا دكتور.

أجاب علي قائلًا:

– لا أستطيع، فهذا أمر خطير، ويجب أن يستريح.

توسل إليه متولي بمشاعر الأب الحنون، والقلب المنفطر قائلًا:

– أريد أن أُلقي عليه ولو نظرة واحدة.

أشفق الطبيب عليه قائلًا:

– سأدعك تلقي عليه نظرة واحدة لكن إياك أن تصدر أي صوت.

أكد متولي قبوله وأقر بالصمت.

فتقدم الدكتور علي ومن خلفه متولي و إبراهيم الذي لا تسمح له الظروف حتى بأن يواسي متولي أو أن يصبره، فخير إعانة له أن يتركه يبكي ليخرج حرقة قلبه ولهيبها المشتعل.

وبمجرد دخولهم العناية المركزة، ورؤية متولي ولده مغطى بالقطن والشاش في جميع جسده، وآثار الكدمات قد غيرت ملامح وجهه، خر مغشيًّا عليه، وتم حمله خارجًا، ووضعوه في غرفة عادية وعلقوا له المحلول مختلطًا بمهدئ ليلطف من لهيب الصدمة.

إنه يوم صعب على متولي وهو كذلك أيضًا على إبراهيم الواقف بجانب متولي .. ذاك الطريح الممدد من أثر الصدمات، وشهادة حق أمام الله أن

إبراهيم لطيب خلوق، فلو كان شخص غيره لما أقحم نفسه داخل هذه المعمعة الدامية المضطربة، فقد كان في مقدرته منذ البداية أن يرى منظر وليد الدامي على الطريق، ويحوقل ثم يمضي في طريقه خوفًا من اتهامه باصطدامه أو كان يمكن أن ينقله إلى المستشفى ويتركه ويمضي إلى عمله، هذا عمل الكثير من أهل الأخلاق الطيبين، لكنه فاق كل ذلك وتعداه بصنيعه هذا، ولولا أخلاقه الطيبة ما كان الله ليختاره من بين الجميع، حتى يشهد هذا الموقف المؤلم العصيب.

(٣)

بعد فترةٍ من الزمن تقدر بساعة، استعاد العم متولي وعيه وكان أول ما نطق به:

- الحمد لله على السراء والضراء، الحمد لله على ما أعطى وأخذ.

وظل يبتسم ابتسامة رضا.

استغرب إبراهيم من أفعال الرجل، وظن أنه قد جن جنونه من هول صدمته في ولده، فقاطع متولي تفكيره عندما رآه متعجبًا قائلًا:

- لا تقلق يا بني، فأنا لم أفقد صوابي بعد، ما زلت بعقلي ولم يصبني الجنون، كل ما في الأمر أنى رأيت رؤية جاءني فيها شيخ صالح وردد قول الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم صدق الله العظيم.. ثم قال:"اصبر وسنرضيك

ونرضيه، واعلم أن المنحة تولد من رحم المحنة".. ثم استفقت بينما يربت على كتفي.

ابتسم إبراهيم وتيقن أنه أمام رجلٍ صالح، يهوّن عليه ربه مصابه ليعطيه ثواب الصابرين الشاكرين، وفي هذه الاثناء أتي طبيب الطوارئ ومعه الممرضة، فاطمأن على ضغطه ونبضه، وأزال عنه المحلول ثم نصحه بعدم الغضب أو الحزن لتستقر حالته، وأخبره بأنه يمكنه المغادرة، فشكرهم متولي و إبراهيم وانصرفا نحو غرفة العناية المركزة، وأثناء الطريق نظر متولي إلى إبراهيم قائلًا:

- جزاك الله خيرًا يا بني، فقد أرهقتك معي وأضعت عليك يوم عملك، أعتقد أنك كنت ذاهبًا للعمل، فجزاك الله خير الجزاء، انصرف يا بني.

اعتذر إبراهيم له وأقسم ألا يغادر حتى يطمئن على ولده، احتضنه متولي وسلم بإرادة إبراهيم ثم استكملا طريقهما..

وقبل الوصول إلى الغرفة، رن هاتف متولي وقد سبق رنته هذه الكثير من الرنات أمام غرفة العمليات، والتي ما استطاع حتى أن يخرج الهاتف ليرى اسم المتصل، بل ولم يكترث لمعرفة هويته لكن في هذه المرة أخرج هاتفه وقرأ الاسم، فارتسمت عليه علامات الحيرة الممزوجة بالألم وبوادر البكاء المسبوقة بندى عينيه، إنها زوجته صفية .. وكان في عيني الرجل الكثير من العبارات التي لو صرح بها لزوجته لماتت قهرًا.. ووصف لو شرحه لها لصُعقت.. وأنين لو سمعت به لقُبرت..

ظل متولي يفكر فيما سيقوله لها! أيخبرها أن وليدها ووحيدها طريح الفراش، وقد غطّاه القطن والشاش؟! أم يخبرها أن وليد وردة البستان لن يستطيع الوقوف على قدميه من جديد؟!! ثم قال بحرقةٍ آه ثم آه ثم آه، فلو علمت أن ابنها أصبح عاجزًا، فأنا على يقينٍ بأني سأعود البيت وأجدها جثة صريعة لهول الصاعقة، ومع كل فكرةٍ تراوده يسيل الدمع سيلانًا من بئر حزنه التي فاض نبعها، لكنه في النهاية استجمع قواه بعزم الرجال، ومسح من جديد دمعه المنهمر، وخبأ كل ذلك في سراديب صدره ثم أغلق عليه متنفسًا بعمقٍ وأجاب قائلًا:

- السلام عليكم.

ردت صفية :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، لقد أقلقتني، لماذا لم تجبني؟ فمنذ الصباح وأنا أتصل بك!

- اعذريني يا أم وليد .. فلم أسمع رنين الهاتف.

- كيف حال صديقك؟

- بخيرٍ والحمد لله، لكنه يحتاج إلى دعائك يا صفية ..لا بد أن تتضرعي لله كي يتم شفاؤه أيتها الطيبة.

- شفاه الله وعافاه وحفظه لأهله وأحبائه.

وهنا لم تعد قدرات متولي وطاقاته تتحمل كبح جماح عويله الذي وصل لأشده، فسالت دموعه تحرق خده في صمتٍ، لا يقوى على

الصراخ، فاعتذر لها واستأذن أنه سينهي المكالمة، فودعته صفية بفؤادٍ منفطر وأغلقت حزينةً على حزن زوجها.

وبمجرد إنهائه المكالمة، انفتح هاويس حزنه وبكائه، في هذه اللحظة تدخل إبراهيم مبتسمًا أن هون عليك، أنسيت الرؤيا؟!!

وما أن ذكره إبراهيم حتى هدأ روعه وسكن رويدًا رويدًا. أرى الطبيب قادمًا ليطمئن على حالة وليد .. نهض إبراهيم و متولي ثم تقدما نحوه سائلين الاطمئنان على وليد فأجابهم قائلًا:

– لا تقلقا، سأدخل لأطمئن عليه.

وما هي إلا دقائق حتى خرج الطبيب، وأكد أن أصعب اللحظات قد مرت بسلامٍ والحمد لله ثم طلب منهما المغادرة، فلا حاجة لبقائهما، توسل إليه متولي للبقاء بقرب ولده بيد أن الدكتور علي رفض معتذرًا ثم غادر، وتبعه إبراهيم مساعدًا متولي الذي يجر حبال الشوق خلفه، ويسحب مشاعره التي أبت القدوم وأصرت على البقاء، وما ملك متولي إلا جسده الضعيف الهزيل أن يجبره على طاعته والقدوم معه. وبالخروج من باب المستشفى، استوقف إبراهيم متولي للحظة، وأحضر سيارته سريعًا ثم طلب من العم متولي أن يصعد بينما رفض متولي قائلًا:

– يكفيك ما لاقيت يا بني، بارك الله فيك.

إلا أن إبراهيم أصر على أن يقله إلى المنزل، فما كان من متولي إلا أن يلبي رغبة إبراهيم ويصعد السيارة.. أوصله إبراهيم إلى منزله، فطلب منه متولي أن يصعد معه حتى يكرمه ويقدم له واجب الضيافة، فاعتذر إبراهيم قائلًا:

- في وقتٍ آخر بإذن الله.

وأعطاه متعلقات وليد من هاتف وحافظة وحقيبة ثم انصرف مودعًا.

وصل متولي إلى شقته مستجمعًا قوته التي خارت من عناء يومٍ طويل، وما أن دخل ورأت صفية منظره حتى دق قلبها كأنه قطار بخاريٍ، واهتز جسدها كأن به جني، وانطفأ وجهها كأنه سحاب رمادي، فأسرعت نحو زوجها الذي شارف على السقوط صارخة:

- متولي .. ماذا بك؟!!

فرد بوهنٍ متقطع:

- لا تقلقي، إنه ضغطي قد انخفض.

فأجلسته ومسحت عرقه ثم خلعت قميصه واستلت قدميه من حذائه وبادرته سائلة:

- أصديقك مريض لهذه الدرجة؟!!!

- نعم، وأسأل الله أن يشفيه.

- شفاه الله وعافاه، هوّن عليك، سأذهب وأُعِد لك ما تأكله.

هكذا قالت صفية فلم يجبها متولي والذي يفكر في إجابةٍ لسؤالٍ حتميٍّ ستسأله صفية :"لماذا تأخر وليد ؟"

هذا السؤال الذي ليس لديه إجابة له، ليطمئن زوجته بها.

لك الله أيها الشيخ الكبير.

وقفت صفية ذاهبةً لتعد الطعام ثم حدقت عيناها وصرخت بعزمٍ وقوة قائلة:

– هذه متعلقات وليد تكسوها الدماء.

فاتجهت نحو متولي تهزه هزًّا عنيفًا قائلة:

– أين ابني؟ ماذا حدث له؟!!! تكلم.. تكلم.

هنا احتضنها متولي بقوة وعيناه تجودان بالدموع قائلًا:

– إنه بخيرٍ، لا تقلقي، لقد نجاه الله من حادثٍ بسيط.

– حادث؟ أي حادث؟!! أريد أن أرى ابني، أريد أن أرى وليد .

ربت عليها متولي قائلًا:

– لا تخافي، هو بخير، هو بخير وغدًا سنذهب لنراه.

بكاء صفية يشتد وعويلها يزيد ويمزق القلوب أسًى وحسرة على ولدها، ودموعها قد صارت فيضانًا اكتسح خديها أمامه، حتى غار في وجهها، وحد له حدًّا.

– اهدئي يا صفية وهيا توضأي ثم صلي لله ليشفيه.

فغادرته باكية تدعو لوليدها بالسلامة والشفاء.

وظلا على حالة البكاء والدعاء طوال الليل حتى شق نور الفجر ظلمة الليل، يأملان أن يشق الله ظلمة العسر بنور اليسر، وبعد صلاة الفجر مباشرةً ارتدت ملابسها، فقال متولي :

– يا صفية .. ما زال الوقت باكرًا.

فردت بعنفٍ:

– الفجر وقد صليناه، فماذا تنتظر؟!

هدأ متولي من غضبها قائلًا:

– لا تقلقي، فالله راضٍ عن ابنك، ولن يضره أبدًا، إنه رءوف رحيم.

سلمت صفية بما قال متولي وانصرفت إلى غرفتها تستكمل دعاءها وبكاءها.

متولي يحدث نفسه قائلًا: مسكينة يا صفية .. فكل آهاتك هذه وتوجعاتك لأني أخبرتك أنه حادث بسيط، فماذا ستفعلين إذا علمتِ أنه أصبح عاجزًا ولن تريه واقفًا على قدميه من جديد؟!!

وظل يبكي بحرقةٍ مرددًا: اللهم الطف بنا يا لطيف.

وما أن دقت السابعة حتى تجهزا وغادرا نحو المستشفى وخلجات نفسيهما تملأها الوحشة من الموقف العصيب، لكن شعارهما "الله لطيف بالعباد".

يقف التاكسي أمام المستشفى، اتجها إلى داخلها وإني لأرى خطاهما تختلف، فـ صفية مشيتها أقرب إلى الجري، لا بل إلى الطيران، لكن لا يكبح جماحها إلا خطوات متولي المتثاقلة على الأرض، حيث أن خطواته تعرف أهوالًا قيدت حركتها وأبطأت مسيرتها، لذلك تجره صفية مزمجرة:

– أسرع خطاك، فلو أني أعرف غرفته لما انتظرتك ببطئك هذا.

متولي ما اعتاد على سوء الأسلوب من زوجته، إلا أنه يقدر مشاعرها ويعذرها لأنه يعلم أن القدر قد أصاب فلذة كبدها، وصلا إلى غرفة الدكتور علي فطلب متولي من زوجته الوقوف خارجًا ليطمئن منه على وليد لكنها أبت وأصرت على الدخول معه، فاحمر وجه متولي واكفهر غضبًا وحدق حتى كادت عيناه تخرجان من وجهه ثم صرخ قائلًا:

– نفذي ما قلته وإلا أقسم بالله لن أجعلك تريه أبدًا.

في هذه اللحظة، رأت صفية أن وجه متولي هو خير لوحة تمثل الغضب والحزم مجتمعين، فرضخت وسكنت تسترضيه قائلة:

– سمعًا وطاعةً، سأجلس على هذا الكرسي.. اهدأ.. اهدأ.

استرخت علامات الغضب ومسح وجهه بيده ثم استدار وطرق بلطفٍ باب الدكتور علي .. سمع إذنه بالدخول، فدخل إليه وتبادلا التحية ثم سأله:

- كيف حال ابني يا دكتور؟

- الحمد لله، لقد تحسن كثيرًا بفضل الله، ودعائك له قد وصل، وما زال يتحسن في كل ساعةٍ عن سابقتها.

- الحمد لله، الحمد لله.

ثم أردف قائلًا:

- هل يمكن أن نراه يا دكتور؟ فأمه بالخارج في شوقٍ ولهفةٍ لرؤية ابنها.

وافق الدكتور علي لكنه حذر أن يكلمه أحد، فهو ما زال تحت تأثير المخدر والصوت المرتفع والبكاء سيضره، فأجابه مسرعًا:

- فهمت يا دكتور.. فهمت.

استبق متولي الباب وخلفه الدكتور علي وما إن وضع متولي يده كي يفتح الباب حتى توقف فجأة، واستدار وبدا كأنه يريد أن يقول شيئًا لكنه لا يعرف كيف يبدأ.

فسأله الدكتور علي :

- ما الخطب؟

رد متولي بتلعثم:

– أنا لم أخبر أمه أنه أصيب بعجزٍ، ورجاءً يا دكتور ألا....

قاطعه الدكتور علي قائلًا:

– لا تقلق، فهذا بيني وبينك، وأنا أُقدِر خوفك على زوجتك.

– جزاك الله خيرًا.

قالها متولي مستديرًا ثم فتح الباب.

جاءت صفية تهرول نحوهما قائلة:

– خيرًا يا دكتور، كيف حال ابني؟

– لا تقلقي يا إن ابنك بخير والحمد لله، فإصابته بسيطة لكننا نحجزه زيادة في الاطمئنان عليه، وأعطيناه منومًا حتى لا يشعر بأي شيء.

فتهلل وجهها وقالت:

– الحمد لله، أريد أن أراه.. أتوسل إليك.

اصطنع الدكتور علي الرفض معللًا ذلك بأن البكاء أو حتى الصوت المرتفع فيه ضرر على صحته، فأقسمت أنها لن تفتح فاها، ولن تُخرِج حتى همسًا، ولن يسمع لها صوت.

فعقب متولي على كلامها قائلًا:

– لقد أقسمت يا دكتور، وأنا أعرفها جيدًا، فهي تبر بقسمها وتنفذه، أليس كذلك يا أم وليد ؟!

أجابت صفية :

– أسَمِعت يا دكتور، أسَمِعت؟!!

– إذًا هيا بنا.

واتجه بهما إلى غرفة العناية المركزة، والتي لا تسمع فيها إلا صوت الهدوء يشقه صوت الأجهزة المتصلة بـ وليد .. فتقدم الدكتور علي في الدخول وطلب منهما الانتظار خارجًا لدقيقة، وما أن دخل حتى غطى جسد وليد كي لا تظهر الأربطة بقطنها الكثير فيتوهم الوالدان بابنهما شرًّا، ويصيبهما مكروه، فالشاش والقطن تحتهما مجرد كدمات وصدمات سوف تشفى عن قريب بإذن الله.

خرج الدكتور علي إليهما، وأكد على الهدوء، والتزام الصمت ثم أذن لهما بالدخول والوقوف عند الباب فقط، فدخلا في لهفة المشتاق، وعندما رأت صفية ابنها وليد طريح الفراش غائبًا عن الوعي كاد قلبها ينفطر وهمت تحتضنه وتقبله، بيد أنهم نجحوا في منعها، ووضع متولي يده على فمها ليكتم صرخاتها، لكن أي قوةٍ على وجه الأرض يمكن أن تمنع قلبها من أن يصرخ بأعلى دقاته! وإذا منعوا جسدها من احتضانه، فأي قوةٍ تستطيع أن تمنع عينيها اللتين قامتا باحتضانه من شعر رأسه لأخمص قدميه، وطفقت تبكي بسيول دموع منزوع عنها الصوت و

متولي ذلك المتظاهر بالقوة أرسل عينيه لتملأ ذاكرتها بوجه ولده الحبيب، وحدث نفسه قائلًا:لولا وجودك يا صفية لكنت أنا من يفعل ما تفعلين.

ويقطع الدكتور علي البكاء والتفكير؛ أن كفاكما ودعاه يرتاح، فرفضت صفية وجلست مكانها قائلة:

– لن أبرح الأرض حتى يستفيق.

فنظر الدكتور إلى متولي أن تعامل معها، فلا يجب لها ذلك، رفعها متولي وزمجر قائلًا:

– قفي، قفي وكفاك ما تفعلين.

ووسط إصراره وقوة سحبه لها، وقفت تهمهم وخرجوا جميعًا، أغلقوا الباب على وليد والذي أكد الطبيب أنه بخير، وأنه سيسترد عافيته قريبًا ثم أمرهما بالانصراف حيث لا حاجة لوجودهما، فلن يسمح لهما برؤيته من جديد.

تستنكر صفية أوامر الطبيب من جديدٍ قائلة:

– منعتموني من البقاء بقربه، فدعوني أبقى هنا خارج غرفته أشتم ريحه، وأقر من خلف الزجاج به عيني.

أجاب الدكتور علي :

– وجودك لن يقدم أو يؤخر شيئًا.

أشار متولي إلى الطبيب بإيماءة رأسٍ معناها سأقنعها بالمغادرة لا تقلق، فصمت الدكتور علي وتقدم للأمام مبتعدًا عنهما.

جلس متولي بجوار صفية واحتضنها ثم قبل رأسها قائلًا:

- يا أم وليد .. فلتقولي الحمد لله، فرب الخير لا يأتي إلا بالخير، وابنك قد أكد الطبيب أنه بخير، فلمَ القلق؟!

بكت صفية بحرقةٍ وحرارةٍ قائلة:

- ابني يا متولي .. قرة عيني، ونور بصري، ونبض قلبي، سأموت إن حدث له أي شيء.

صاح متولي بغضب يا امرأة، لمَ هذا التشاؤم؟ من قال أنه سيموت؟! إنها مجرد كدمات بسيطة وسيشفى منها قريبًا، أما سمعت ما قاله الطبيب؟! هيا بنا نسترح في بيتنا، فوجودنا هنا لن يفيد شيئًا، هيا يا زوجتي الحبيبة هيا.

رضخت صفية لكلام متولي بعدما استطاع أن يهدئ من روعها، ووعدها بالقدوم غدًا إن شاء الله، فلانت وسلمت ثم ساعدها على النهوض، فغادرا بعدما ودع متولي الدكتور علي وأثناء مرورهما أمام مكتب الاستقبال، استوقف متولي أحد الموظفين بلطفٍ طالبًا منه الذهاب إلى مقر الحسابات، فطلب من صفية الخروج وذهب إلى هناك، استكمل بعض الإجراءات وأعطوه إيصالًا بما يجب دفعه، فوضعه في جيبه ولم يقرأه ثم انصرف مع زوجته.

(٤)

عادا إلى المنزل والصمت يخيم على الأركان، فلا تسمع إلا همسًا يمتزج بالدعاء تارة، والابتهال تارة، والبكاء تارة أخرى؛ فقد انطفأت شمس المنزل، وغاب قمره، بل حتى الهواء المنعش الذي كان يسير مع وليد قد غاب، حتى ليخيل للمرء أنه منزل أشباح، وكالعادة لابد لخيوط الصمت أن يمزقها صوت، وكان هذا الصوت لهاتف متولي .. وجد رقمًا يتصل، فإذا به أحد زملاء وليد في المطبعة يسأل عن سبب غيابه المفاجئ وعن إغلاق هاتفه، فقد قلقوا عليه، فأخبره أن وليد قد تعرض لحادثٍ بسيط.

واساه الرجل محوقلًا ومتمنيًا له السلامة والشفاء، وعاتبه على عدم إخبارهم ليقفوا معه، فـ وليد بمثابة أخٍ لهم بالرغم من قصر مدة عمله معهم، واستفسر عن اسم المستشفى ومواعيد الزيارة.

شكره متولي على طيب أخلاقه وحُسن أدبه ثم أخبره معتذرا أن الزيارة ممنوعة الآن وانتهت المكالمة بوعود للقاء في القريب العاجل.

انتهت المكالمة ليعود الصمت من جديد يخيم على الأرجاء، لكنه لم يخيم على فكر متولي الذي شرد في ذلك الإيصال الموجود بداخل جيبه، فهو يخاف أن يفتحه، قد يجد فيه مبلغًا يعجز عن سداده، فتزيد همومه همًّا وآلامه ألمًا، لكن نفسه حدثته بأن وقوع البلاء خير من انتظاره، تشجع وفتح الإيصال، فإذا به سبعة آلاف جنيه، سالت دموع الرجل كناية عن عجزه وقلة حيلته.

قد يظن البعض أن هذا المبلغ قليل لا يذكر، ويمكن للبعض أن ينفقه في يومٍ واحد، لا بل في جلسةٍ واحدة، لكن لكل بيتٍ ظروفه الخاصة، إذًا متولي في ضائقةٍ مالية ويأبى الحياء وتمنعه الكرامة أن يمد يده لأحد، لكن إن ضاقت به الأسباب وكان الحياء والكرامة في كفة، و وليد في كفه، فتبًّا لكل شيءٍ ما عدا وليد !وبينما يفكر في حلٍّ، تذكر أن لــ صفية خاتمًا وقرطًا، فتقدم نحوها قائلًا:

– المستشفى تحتاج سبعة آلاف لعلاج وليد .

أجابت صفية بفعلٍ لا بقول، فقد خلعت خاتمها وقرطها بدون أن يذكر لها ذلك، احتضنها متولي وقبّل جبهتها، فنزل وباعهما وتم جمع المبلغ بفضل الله.

شقشق الصباح وهرولا كالعادة نحو المستشفى، فتقدم متولي نحو الحسابات ودفع المبلغ ثم انصرف مع زوجته وكل ما يفعلاه في غرفه وليد هو التأمل والمشاهدة فقط، وقد استمر ذلك لثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع توجها للمستشفى وتقدم متولي نحو الدكتور علي ليستأذنه في الزيارة، فطرق بابه ودخل، انتهزت صفية الفرصة وتسللت بلطفٍ نحو غرفة وليد حتى تزيد من وقت جلوسها معه ورؤيتها له، وفجأة تنطلق صرخة لها أفزعت متولي والدكتور علي فهرولا إليها..

– ابني ابني، أين ابني؟!

لقد وجدت غرفته قد سكنها غيره، ولعبت بها الظنون أسوأ لعبة، وتصورت أن وليد قد فارق الحياة.

وما إن وصل إليها متولي حتى صرخ قائلًا:

– حرام عليك.. ستقتلينني بطيشك هذا!

– أين ابني يا متولي ؟!!

– نقلوه إلى غرفةٍ عادية، فقد تحسنت حالته.

انفجرت صفية باكية بسيولٍ من دموع، ما أعتقد أنها ستجف الآن، و متولي هذا الرجل الطاعن في السن، تتصافح ركبتاه قربًا وبعدًا مما سببته صرخات صفية من رعب، وقلبه يدق دقًا عنيفًا، وصدره يتوسل إلى الهواء توسلًا ليَمُن عليه بنَفَس أكسجين، لكن ما أبخل الهواء في لحظات التوتر والقلق! و صفية لم ينقطع أنينها:

– خذوني لابني.. أريد أن أراه.

أجاب الدكتور علي ملطفًا من لهيب الموقف:

– تعالوا معي.. سنذهب إليه، هيا يا حاج هيا.

تبعه متولي دون أن يتفوه بكلمة، وساروا في ممر المستشفى ثم نزلوا بالمصعد إلى الطابق الثاني، وعلى بعد خطواتٍ من باب المصعد، غرفة وليد الهادئة والتي تخلو من الأجهزة المعقدة كسابقتها، وتتسم بالهدوء وجمال المنظر؛ فهي تطل على حديقة المستشفى.

تقدم الدكتور علي في الدخول، وفي ظله صفية ثم متولي ولحسن حظهم كان وليد قد استفاق أمس صباحًا بعد مغادرة والديه مباشرة، فآثر الدكتور علي ألا يخبرهما، وآثر أن ينزع الممرضين عنه القطن والشاش، ولما دخل عليه أبيه وأمه كان مستيقظًا مستلقيًا على ظهره، فألقى الدكتور علي التحية عليه قائلًا:

– صباح الخير يا بطل.

وما أن ردها وليد قائلًا:

– صباح النور يا دكتور.

إلا وطارت صفية نحو وليدها بالقبل والأحضان متجاهلةً عبارات الدكتور المحذرة لها، وصرخات متولي الموجهة لها بالحذر واللطف، بيد أنها ظلت تقبل رأسه وخده ويده، اغرورقت عينا وليد بالدموع مطمئنًا لأمه قائلًا:

– أنا بخيرٍ يا أمي، لا تقلقي، أنا كالحصان.

وتقدم متولي نحوه، مقبلًا إياه، احتضنه حامدًا الله وشاكراً له على سلامة ولده ثم سأله قائلًا:

– كيف حالك يا بني؟!

أجابه وليد بابتسامة طمأنينة:

– الحمد لله يا أبى.

أما عن تلك الابتسامة المطمئنة، فسِرُّها أنه عندما استيقظ بالأمس وجد نفسه وحيدًا في حجرةٍ ليست حجرته وملقى على سريرٍ ليس بسريره، كما شعر بآلام الجراح وإرهاق الحادث، فلم يكن قد تذكر شيئًا بعد عن الحادث، وظل ينادي ويصرخ: أبي.. أمي.

فكأنما كان في حلمٍ، لا بل في كابوسٍ مريع شنيع، لكن من لبى نداه لم يكن أحد والديه بل الممرضة، والتي أتت مسرعة تحاول أن تهدئه، لكنها فشلت فاستدعت الدكتور علي بسرعة، فأتى وهدأ من روعه، وظل يردد قائلًا:

– أنت بخيرٍ، لا تقلق، لقد تعرضت لحادثٍ بسيط، وأنت الآن في أحسن حال.

ثم أعطاه حقنة لتهدئه، فاسترخى وليد وهدأ روعه، حتى لا يصيب نفسه بأذى، وجلس الدكتور علي بجواره يطمئنه أن الله قد نجاه من هذا الحادث، ونجاته كانت بمثابة معجزة من المعجزات.

حمد وليد ربه وشكره على السراء والضراء، فهو مؤمن، والمؤمن لا يحتاج إلا للتذكِرة، فقد قال الله سبحانه وتعالى:"وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين."

وقد بشره الدكتور علي بأنه سيتم نقله من غرفة العناية هذه إلى غرفةٍ عادية نظرًا لتحسن حالته واستقرارها ثم انصرف، وعندما استرجع وليد كل هذه الأحداث، كان لزامًا على هذه الابتسامة المطمئنة أن تظهر بعد طول اختفاءٍ مستأنسة بأهله الذين يخففون عنه.

متولي و صفية والدكتور علي كانوا يحيطون بـ وليد بحبهم وهوّنوا عليه آلامه النفسية، تحولت الأحوال من مضطربة وهائجة إلى مستقرة وهادئة. رن هاتف متولي وكانوا زملاء وليد في المطبعة يسألون هل فتحت الزيارة؟ فسأل متولي الدكتور علي سريعا، وقد أجابه بنعم، فأخبرهم متولي بفتح الزيارة واسم المستشفى ثم وصف لهم طريق الغرفة، وقد أخبر وليد بقدومهم، فاستأذن الدكتور علي بالانصراف ثم نادى من بعيد متولي فتقدم نحوه قائلًا:

- خيرًا يا دكتور.
- لقد تحسن وليد بفضل الله إلا أنى لم أخبره بشأن إصابة عموده الفقري وعدم إمكانية سيره على قدميه حتى لا يتعرض لصدمةٍ بينما لا يزال في بداية التعافي.

فهم متولي وجهة نظر الدكتور علي ووافقه عليها، وأكد بأنه لن يخبره شيئًا.

عقب الدكتور على قائلًا:

– جيد، وفي الوقت المناسب سأخبره، وتكون أنت معي.

فهز متولي رأسه مرددًا:

– إن شاء الله.

وبعد أقل من ساعة حضر زملاء وليد وهم متولي يعدل من هيئته، ويستدعي رباطة جأشه طاردًا بها حزنه وضعفه ثم رسم على وجهه ابتسامة الاستقبال وكلمات الترحيب بالزائرين.

كانوا ثلاثة محسن، وفهمي، وكامل والذين بدت عليهم علامات القلق والأسى على زميلهم الجديد، فقابلهم متولي ورحب بهم ودخلوا إلى وليد .

قال محسن : شفاك الله وعافاك يا وليد .

وردد فهمي : سلمك الله يا صديقي.

كما تحدث كامل بغضب:

– من الذي صدمك حتى أمزقه إربًا؟

– هدئ من روعك يا كامل فإنها إرادة الله.

هكذا قال وليد وكذلك العم متولي والذي أضاف قائلًا:

– قدر الله، وما شاء فعل.

وبعد الاطمئنان على وليد وصحته غادروا جميعًا.

وبعد خلو الغرفة من الضيوف، قال متولي مبتدئًا الحديث:

– وليد .. كيف حدث هذا الحادث؟

بمجرد أن استقبلت أذن وليد السؤال، مرت الأحداث على ذهنه منذ بدايتها وحتى نهايتها، وقد ثارت مشاعره رغبةً في الانتقام من ذلك اللاهث اللاهي، ودق قلبه كأنه وسط معركةٍ عاتية، وتعالت أنفاسه وكأنها جرس إنذار، لكنه سلم أن كل الأقدار إنما تتم بإرادة الله، ومسح علامات الغضب بممحاة التناسي ثم رد بكل هدوءٍ قائلًا:

– كنت أعبر الطريق، ولم أنتبه للسيارة الآتية بسرعة.

– أما سمع باختراعٍ في سيارته يسمى المكابح، سامحه الله.

تحدثت صفية قائلة:

– لا سامحه الله، اللهم انتقم منه.

فأنبها متولي بنظرته وعاقبها بعباراته:

– لا ينبغي الدعاء على أحد، قولي الحمد لله واصمتي.

فصمتت صفية بخوفٍ بعدما قرأت نشرة الأحوال الجوية لوجه متولي وتيقنت أنها إن تكلمت ستمطر تصرفاته بكلماتٍ أحد من نصل السيف

وأثقل من الحديد، فهو لا يرغب أن يستفيض في الحادث مراعاةً لابنه وحالته.

وبعد أن خيم الصمت داخل الغرفة، أزاله طارقٌ على الباب يستأذن بالدخول، فأذن له متولي فإذا به إبراهيم .. تقدم نحوه متولي مرحبًا ومردداً:

– أهلًا وسهلًا بالرجل الطيب المحترم.

فتقابلا بالأحضان و وليد يتعجب لهذا الذي يرحب به أبوه بحرارة! فهو لم يره من قبل، فلا هو بالجار ولا بالزميل! وينظر وليد إلى أمه عسى أن يجد الإجابة عندها، فقرأ الاستغراب على وجهها ناظرةً إليهما، ففهم أن والدته لا تعرفه، ويقطع متولي خيوط التساؤلات المتعجبة لــ وليد ليبني بدلًا منها صرحًا من التعارف بينه وبين إبراهيم ، فابتدأ متولي الحديث قائلًا:

– وليد .. هل تعرف من هذا؟

ابتسم ابتسامة عنوانها أعتذر، لم أتشرف به من قبل .. فهمها متولي الذي استطرد قائلًا:

– هذا إبراهيم .. وهو الذي أنقذك من الموت، وحملك إلى هذه المستشفى، وهو من أبلغني بالأمر، ولم يفارقني طوال اليوم.

تقدم إبراهيم نحو وليد ليصافحه قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك، كيف حالك الآن؟

- الحمد لله، أصبحت أفضل حالًا مما وجدتني عليه، وبارك الله فيك على إنقاذ حياتي، فلولاك بعد الله لكنت قتيلًا.

- لا تقل هذا، فأي شخصٍ آخر كان ليفعل مثلما فعلت وأكثر.

عقبت صفية قائلة:

- بارك الله فيك يا ولدي، وحفظك من كل شرٍّ ويسر لك كل خير.

- جزاكِ الله خيرًا يا أمي، فأنا أحتاج بالفعل هذه الدعوات.

وبعدما هدأ جو الترحاب والأدعية، طرأ على ذهن وليد سؤال عندما رأى وجاهة إبراهيم وحسن منظره وأناقة بذلته، فتحدث قائلًا:

- ماذا تعمل يا أستاذ إبراهيم ؟!!

- أولًا نحن في سنٍّ متقارب، فلا داعي للتكليف بيننا، كما أننا أصبحنا صديقين، أم أن لديك ما يمنع؟!

- هذا شرف لي يا أستاذ...

ثم صمت وليد كأنه يسترجع كلمة أستاذ ويبتلعها قبل أن تخرج ثم عقب قائلًا: يا إبراهيم .

ابتسم إبراهيم لصمت وليد حين ابتلع كلمة أستاذ وقال:

– هكذا أفضل.

واستطرد قائلًا: أنا مهندس ومدير شركة للدراجات البخارية الموتوسيكلات .. أما صاحبها، فهو أبي.

أعجب الجميع بالشاب وبوظيفته المرموقة ومركزه الاجتماعي المحترم إلى جانب تواضعه وعظيم أخلاقه.

تحدث وليد مازحًا:

– معك حق أن ترفض كلمة أستاذ .. فأنت ترمي لأن أقول لك يا كبير المهندسين .. أليس كذلك؟!

أجاب إبراهيم ضاحكًا:

– هكذا بالضبط يا فتى.

واستطرد قائلًا:

– وأنت يا وليد .. ماذا تعمل؟!

– أنا أعمل في مطبعة، لكنى أطمح أن يكون لدي مطبعة خاصة بي تكون أكبر مما أنا فيها.

رد إبراهيم مبتسمًا:

– أنا أحترم الشاب الطموح الذي يرغب في تطوير نفسه وتحسين حاله، فالإنسان بلا طموح كالسيارة بلا بنزين، لا تتحرك أبدًا.

فرح وليد بثناء إبراهيم وأكد أنه ما إن يتعافى ويخرج من هنا حتى يعود إلى مطبعته ليستكمل مسيرته، خرجت هذه الكلمات بطيبةٍ وبراءةٍ من وليد الذي لم يعلم بعجزه بعد، إلا أنها أصابت قلب متولي فقتلته، نعم قتلته، والقاتل وليد لكنه قتل بالخطأ، قتل دون قصد، تبكي جميع حواس متولي على وليد إلا أن الدموع قد تجمدت في عينيه لأنها لا ترغب في قتل مشاعر وليد إن علم الحقيقة.

إبراهيم يبتسم رِضًا لـ وليد عن طموحه، لكن قطع حوارهما زيارة لخليط من الجيران والأقارب والذين سعت إليهم الأخبار بفتح الزيارة، وقد اكتظت بهم الغرفة مما عجّل برحيل إبراهيم الذي وعد وأكد تكرار الزيارة ثم انصرف مودعًا أهله الجدد كما وصفهم.

تنوعت الأصوات في الغرفة ما بين رجلٍ وامرأة، وصغيرٍ وكبير، وما بين سامعٍ ومستمع، وانشغل وليد و متولي و صفية في الرد على استفسارات الناس عن الحادث، وصحة وليد والدعاء له، وما إلى ذلك مما يقال في مثل هذه المناسبات، وبعد مرور ما يقارب الساعة، حضر الدكتور علي كأنه نجدة من السماء لـ وليد الذي يريد أن يستريح من ضوضاءٍ فاق ألمها ألم الجراح، فاعتذر للزائرين بضرورة المغادرة لتوفير الراحة والهدوء للمريض الذي نظر في عينيه الدكتور علي فوجده يرسل له عشرات التحيات ومئات الدعوات من عينيه الصامتتين ـاللتين ألجمهما الحياءـ على هذه النجدة، فارتفعت الأصوات مودعة لتعد بالزيارة من

جديد، وانصرفوا يشيعهما متولي و صفية ، فتنفس وليد الصعداء، وقال مازحًا:

– أين كنت كل هذه المدة يا دكتور؟!!

ضحك الدكتور علي قائلًا:

– أحببت أن أملأ الفراغ الذي كنت تشعر به.

رد وليد ضاحكًا:

– جزاك الله خيرًا، فقد ملأت فراغ عشر سنوات مقبلة.

ضحك الاثنان بصوتٍ مرتفع، جاء على إثره متولي سعيدًا بعدما ودع الزائرين وسأل مبتسمًا:

– علام تضحكان؟

أجاب وليد مقهقهًا:

– لقد كان الدكتور علي يدغدغ قدمي.

فاشترك معهما متولي في الضحك متحولين إلى نوبةٍ من الضحك، تدخل أثناءها صفية باسمة الثغر سائلة:

– علام تضحكون؟

لم يجبها أحد، فقالت قاطبة حواجبها:

– الشيخ شمندر يقول إن كثرة الضحك فأل شر وتحضر الشياطين.

وما أن سمع وليد ذلك حتى صاح بأعلى صوته قائلًا:

– بركاتك يا شيخ شمندر .. بركاااتك.

وانفجرت قنبلة الضحك بينهم، والتي لم يستطع أحد أن يلتقط أنفاسه منها، وحتى صفية فقد ضحكت حتى تمايلت على متولي .

وبهذا يكون الضحك قد عاد ليرتسم على وجوهٍ كان قد نسيها ونسيته، لكن السؤال الذي يطرح نفسه؛ هل سيستمر هذا الضحك معلنًا انتهاء حالة الطوارئ التي رفعها الحادث؟! أم أن الحزن هدأ كالهدوء الذي يسبق العاصفة؟!!

أو كما نقول استراحة محارب اتخذها الضحك سبيلًا للظهور من جديد على ساحة الميدان!!

على العموم هذا ما ستكشفه الأيام القادمة إن كان ضحك وتفاؤل، أم حزن وتشاؤم!

انتهى موعد الزيارة، وهمَّ متولي و صفية بالمغادرة، واستغل الدكتور علي انشغال صفية بتوديع وليد ، وانفرد بـــ متولي طالبًا منه الحضور بمفرده غدًا حتى يخبرا وليد بما يجب أن يعرفه حيث أنه في ليلة أمس قد اشتكى للدكتور علي من ثقلٍ في رجليه، وأنه لا يشعر بهما كأنهما غائبتين، فبرر الدكتور علي بأن ذلك نتيجة للمخدر المركز الذي تلقاه جسده، وخصوصًا منطقة الرجلين، وأنه سيتحسن قريبًا، وهز وليد رأسه مع ابتسامةٍ زائفة حتى لا يظهر عدم اقتناعه الداخلي نظرًا لأن المخدر لا

يستمر تأثيره كل هذه المدة في جسم الإنسان، لكنه لم يشغل باله كثيرًا في تفسير الأمر، خصوصًا وأنه يثق بدرجةٍ كبيرة في الدكتور علي ويحترمه كثيرًا.

- سآتي بمفردي إن شاء الله يا دكتور.

هكذا رد متولي .

غادر الجميع الغرفة، وتركوا وليد لوحدته التي مل منها مما جعله يطلب من الدكتور علي أي كتابٍ أو مجلة ليقرأها، فما اعتاد على الفراغ قط، وكأن الله قد ساعد الدكتور علي وسهل له ما كان ينوي أن يقوله لــ وليد غدًا، فأحضر له من مكتبته الخاصة كتابًا بعنوان الصبر ويشمل الكتاب تعريف الصبر وحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم للصابرين، وقصصًا عن الصابرين وجزائهم العظيم في الدنيا والآخرة.

سعد وليد بالكتاب وشكر الدكتور علي والذي أكد لــ وليد عظمة هذا الكتاب، وروعة محتواه ثم عقب قائلًا:

- أسأل الله أن يجعلك من الصابرين.

ثم انصرف، عدل وليد من جلسته مرخيًا ظهره على وسادته فاتحًا الكتاب، وأول ما وقعت عليه عيناه كان قول الله تبارك وتعالى:"ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ١٥٥ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا

إنا لله وإنا إليه راجعون ١٥٦ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ١٥٧ "

شعر وليد كأن الله يخاطبه ويوجه له الآيات، بل وكأنه يواسيه في حادثته التي تعرض لها، وردد قائلًا:

– الحمد لله وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكلما تعمق في صفحات الكتاب، وجد ما يرطب قلبه ونفسه، فوجد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إنما الصبر عند الصدمة الأولى."

وقد ذكر الكتاب عدة قصص للصابرين، وعلى رأسهم قدوة الصابرين نبي الله أيوب عليه السلام وكيف صبر وتحمل وشكر الله حتى عافاه مما ابتلاه ورد إليه أهله وأمواله وزيادة، وخلد الله ذكره في قرآنٍ يتلى إلى يوم القيامة.

ما أن انتهى وليد من قراءة الكتاب حتى شعر بالرضا التام بقضاء الله، وتيقن أن الله حكيم رحيم، يبتلي المؤمن ليزداد إيمانًا ويرزقه جنانًا، وازدادت فرحته عندما قرأ قول المصطفى صلى الله عليه وسلم:"أكثر الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل."

وهذا خير دليلٍ وأقوم برهان على أن الله يمتحن خاصة عباده حتى يتفضل عليهم بجنته ورضوانه.

إنها الواحدة بعد منتصف الليل، وقد أرسل جسد وليد إلى مخه إشارات ورسائل شاكية إليه الإرهاق، فاعتذر المخ لهم مبررًا التأخير بقراءة الكتاب الذي أخر ميعاد نومهم واسترخائهم ثم ما لبث أن أمر الفم بالتثاؤب، وأمر العين أن أسدلي ستائرك، فاستسلم وليد لهذا الحِلف الذي ضم المخ والجسد وأعلنوا انتهاء حالة السهر وإطفاء الأنوار والتمدد على السرير.

نام وليد مرتاح البال خالي الذهن، وإن كانت خزائن طاقته الجسدية قد استهلكت ونفدت، فإن طاقته الروحية والمعنوية قد استُكملت وامتلأت مخازنها حتى فاضت على وجهه ابتسامة رضا كانت آخر عهده بليلته تلك.

وأرجو أن تستطيع هذه الطاقة أن تقاوم صدمات الغد وتتصدى لها بإيمانٍ وعزمٍ وصبر.

(٥)

- نام وليد لكن لم ينم متولي الذي أرقه خوفه على ولده، وكيف سيتلقى الصدمة! وتساءل؛ كيف سيخبره؟! وماذا سيقول له؟! أيحتضنه بقوةٍ ويقول: ستظل عاجزًا يا بني؟! أم يقف من بعيدٍ ويهمس: وليد .. لن تستطيع أن تسير على قدميك مرة أخرى؟! تسيل دموع متولي على وسادته بحرارة، ويخاف أن تشعر به زوجته المسكينة، فيزداد الطين بللًا كما يقولون، فتسلل من الفراش حتى غادر الغرفة، دخل غرفة وليد وأوصد بابها، وأغلق نافذتها ثم أطفأ نورها وجلس على كرسي، ظل يفكر؛ كيف سيخبر ابنه؟! لكنه لم يتوصل لطريقة، لذلك قرر أن يدع الأمر للدكتور علي كي يتصرف كيفما شاء ويخبره بالطريقة التي يراها مناسبة، وما أن تخيل وجه وليد المفزوع من الصدمة إلا وسالت دموعه بحرقة، الأب الحنون الذي فُجع في فلذة كبده، وظل يبكى بصوتٍ مكتوم، ولولا وجود

صفية بالمنزل لأطلق لصوته العنان، ولأعطاه مطلق الحرية في التأوه والأنين.. لكن كلمة لو لا وجود لها في عالم الواقع.

- استغفر متولي ربه ودعاه ثم ناجاه وتيقن أن البكاء لا يفيد بشيء، فإن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون، فقام وتوضأ واختلى بربه يحدثه ويسترحمه لولده، فكل شيءٍ بيد الله، والله على كل شيءٍ قدير.
- سمعت صفية أذان الفجر، فمدت يدها نحو متولي قائلة:
- متولي .. لقد أذن الفجر.

إلا أن يدها لم تجد مبتغاها، وصوتها حدث من لا وجود له، وشعرت بعدم وجود زوجها بجوارها، تيقنت ذلك بعد ذهاب يدها يمنة ويسرة على السرير باحثةً عنه، فقامت قلقة تنادي:

- متولي .. متولي أين أنت؟!!

وخرجت من غرفتها تنادى ثم اتجهت نحو الحمام، فلم تجده وألقت نظرة على المطبخ لعله شعر بالجوع، فلم تجده، ازداد قلقها أكثر، وعندما فتحت غرفة وليد أضاءت نورها، فوجدته ساجدًا لله يصلي، فقالت:

- لقد أقلقتني عليك يا متولي .

وجلست على الكرسي تنتظره، وبعدما انتهى من صلاته وسلم، سألته:

- أي صلاةٍ هذه والفجر ما زال يؤذن؟!
- صليت ركعتين ابتغاء مرضاة الله يا صفية .
- تقبل الله، فقد قلقت عليك لأني اعتدت أن أوقظك بنفسي للفجر، وما استيقظت قبلي قط.
- ذهبت إلى الحمام وعلمت باقتراب موعد صلاة الفجر، ففضلت أن أصلى ركعتين بدلًا من النوم.

وآه لو نطق جسدك يا متولي لصرخ قائلًا:

- رحمك الله، هون على نفسك، فما ذقت للنوم طعمًا، بل ولا مر عليك سهاده.

ثم غادرها وذهب إلى المسجد، وبعد انتهاء الصلاة، عكف فيه حتى بزوغ الشمس يقرأ القرآن ويذكر الله ويدعو لوليده بالشفاء والسلامة.

عاد متولي إلى منزله في حدود السابعة، طرق الباب وفتحت صفية التي قد استعدت لزيارة ابنها قائلة:

- لمَ كل هذا التأخير يا حاج متولي ؟

لم يرد متولي ودخل غرفته ليغير ملابسه، فاستعجلته صفية حتى يصلا مبكرًا إلى وليد .. كل هذا و متولي صامت يفكر في حيلةٍ يمنع بها صفية من مرافقته اليوم ل وليد نظرًا لما سيخبره به الدكتور علي فهو لا يريد أن يصطحبها، كما أنه لا يريد أن يصارحها الآن على الأقل، حتى يكون

الذهن مشغولًا في جبهةٍ واحدةٍ بدلًا من أن تخور قواه في جبهتين.. وليد وأمه، فلا طاقة له أن يصدمهما معًا، فهو لا يستطيع أن يتحمل الأهوال والآهات في وقتٍ واحد.

طلب متولي من صفية كوب شاي حتى يستغل الوقت في التفكير لعله يصل لحيلة تخلصه من صفية .. وظل يقترح على نفسه أن يفتعل مشكلة ويمنعها بسببها من مرافقته، لكن هذه الفكرة لم تلق إعجابه؛ فما ذنب هذه المسكينة ليغلظ عليها؟! فقلبها الحنون ينفطر على ولدها.. بئس الفكرة هي!

ظل يفكر ويفكر حتى توصل لفكرةٍ هادئةٍ ومؤدية لأهدافه، فما أن سمعت أذنه وقع خطى صفية قادمة حتى أسرع لهاتفه وقام بتشغيل نغمة الرنين الخاصة به، وادعى أمام صفية أنه الدكتور علي فقال:

– السلام عليكم يا دكتور، خيرًا إن شاء الله؟

وظل يمشي في الغرفة ويتجول ثم ردد:

– سمعًا وطاعة، لكن أستأذنك أن أحضر له بعض ملابسه التي طلبها مني أمس، ولن أتأخر عنده.

أنهى متولي مكالمته المزعومة مودعًا الدكتور علي ..قالت صفية بقلقٍ وتوتر:

– ماذا حدث؟!

- الدكتور علي منع الزيارة اليوم حتى يستريح وليد من زحام أمس وضوضائه.
- معه حق، ولن أسمح لأحد بزيارته وسأخبرهم أنه نائم.
- الدكتور منع الزيارة عن الجميع حتى أنا وأنتِ.
- ماذا تقصد؟ ألن نراه اليوم؟!! مستحيل.. مستحيل سنذهب لنراه رغمًا عنه، فهذا ابننا.

كبّل متولي غضبه وأردف قائلًا:

- الدكتور يبحث عن راحة ابنك وهو أدرى بعمله، ولن يزوره أحد اليوم، وأنا سأذهب لأعطيه الملابس وأعود على الفور، بل إن الدكتور هو من سيأخذها مني، أما سمعت المكالمة التي كانت أمامك؟!!

اشتعل غضب صفية والتي لا تستطيع أن تخرجه على متولي وخرجت من الغرفة تكاد تنفجر، وتردد عبارات غير مفهومة، وما سمعنا إلا باب الغرفة الأخرى يصرخ:"أغيثوني."

فقد أغلقته صفية بسرعةٍ تقدر بسرعة الضوء حتى كادت تنخلع مفاصله، وتنكسر جوانبه، ولم يبدِ متولي أي رد فعلٍ تجاهها، فهو يقدر مشاعرها وحالتها النفسية، فأخذ ملابس وليد وانصرف.

وصل متولي إلى المستشفى ثم اتجه نحو الدكتور علي .. شجع كلٌّ منهما الآخر، واتفقا أن يبدأ الدكتور علي بالكلام، فـ متولي لا يستطيع أن يصدم وليد بهذا الخبر المرعب، وخرجا قاصدين وليد ثم صادفا إبراهيم في طريقه أيضًا إلى وليد فسعد متولي لرؤيته، ولحسن ظنه به وأنه سيساعدهم في التخفيف عن وليد فأخبراه بما سيتم، لكن إبراهيم شعر بالحرج وصعوبة الموقف، وطلب إعفاءه مبررًا ذلك بأنه حديث العهد بمعرفة وليد وموضوع كهذا يحتاج إلى صلة قوية راسخة، فقال:

- أنت أبوه يا عم متولي والدكتور علي هو الطبيب المعالج، أما أنا فمن أكون بالنسبة له؟!

أجاب الدكتور علي قائلًا:

- أنت من أنقذ حياته، ألا يكفى هذا؟!

صمت إبراهيم وكأن رد الدكتور علي قد هدم جميع حججه ومبرراته، فالتقط نفسًا عميقًا وأخرجه قائلًا:

- على بركة الله.. هيا بنا.

تقدم الدكتور علي وطرق الباب، فسمع صوتًا نديًّا؛ أن تفضل، فدخل الثلاثة ولكلٍّ منهم على وجهه ابتسامة مصطنعة بحرفيةٍ شديدة، لكن إن توحدت بسماتهم إلا أن مقاصدها قد اختلفت، فـ متولي ابتسامته تخفي خلفها خوفه على ولده من حدة الصدمة وأثرها عليه، وابتسامة الدكتور علي تخفي خلفها خوفه من تدهور حالة وليد الصحية

وانتكاستها، أما إبراهيم فيخفي خلف ابتسامته حزنه وحسرته على هذا الشاب الذي في ريعان شبابه، وأنه قد تعرف عليه في أسوأ الظروف، وقد يربط وليد بينه وبين الحادث فيكرهه، كل هذه الابتسامات و وليد لم يقرأ أي شيءٍ خلفها، فقد قلنا من قبل أنها ابتسامات ملونة ومصطنعة بحرفية.

تهلل وجه وليد لرؤيتهم ورحب بهم بشدةٍ بالغة، فهم أقرب الناس إلى قلبه وأحب خلق الله إليه حاليًّا، وقد التفوا حوله بحبٍّ ومودةٍ سائلين عن حاله! فأجابهم أن الحمد لله رب العالمين.

سأل الدكتور علي قائلًا:

- كيف وجدت كتاب أمس يا وليد ؟

- إنه كتاب رائع جدًّا، ولقد نهلت من معارفه، واستفدت منه جدًّا، ولا أخفي عليك سرًّا؛ لقد أتى في وقته تمامًا.

رد الدكتور علي مازحًا:

- بما أنك استفدت منه، فلتعطني خمسين جنيهًا ثمن الكتاب.

التقط وليد الكتاب وقال ضاحكًا:

- خذ كتابك وتوكل على الله.

ضحك الجميع، واستكمل وليد مزاحه قائلًا:

- أطبيب أنت أم العم برعي بائع الكتب؟!!

ضحك الدكتور علي مستنكرًا:

– برعي !! أأنا برعي يا وليد ؟!!

أجاب وليد بينما يلتقط أنفاسه من الضحك:

– نعم برعي وهذه ليست بمستشفى، أنا أشعر وكأني على سرير في الفجالة.

تحدث متولي بسخرية:

– تأدب يا ولد.

– الأدب كان سيكلفني خمسين جنيهًا يا أبي، فدعك من الأدب، فالزمن قد تغير.

عقب إبراهيم مشاركًا في مراسم الضحك:

– يا لك من بخيل! كل هذا من أجل خمسين جنيهًا؟!

أجاب وليد بسخرية:

– بل ولأجل خمسة جنيهات.

تحدث الدكتور علي قائلًا:

– أنت رجل عنده شح!

نظر إبراهيم إلى الدكتور علي قائلًا:

– سأدفع لك خمسين جنيهًا لوجه الله.

قال وليد بسخريةٍ ضاحكًا:

– سبحان الله! أتعطي الدكتور لوجه الله ولا تعطيني أنا البائس الفقير؟!

ثم نظر إلى أبيه قائلًا:

– ألم أقل لك يا أبى أن الزمن قد تغير؟!

أجاب الدكتور علي :

– سامحك الله، ما ضحكنا هكذا منذ زمن.

حرك وليد رأسه يمنة ويسرة قائلًا:

– بركاتك يا شيخ شمندر !

تعالت القهقهات من الجميع لفرط ضحكهم، وكانت هذه اللحظة من أجمل اللحظات التي عاشها وليد منذ الحادث؛ فقد استطاع أن يُسعد نفسه ويُضحك غيره، مما ساهم في زيادة الود وتقريب المسافات بينهم جميعًا، فتشعر وكأنهم يشاهدون فيلمًا كوميديًّا، هم أبطاله وجمهوره إلا أنه من إخراج الله الرحيم الذي يلطف بعباده حتى يهون عليهم الأمر.

هدأت الضحكات واسترخى الجميع ثم عاد كلٌّ منهم يلتقط ما سقط من أنفاسه أثناء الضحك، وهنا ينظر الدكتور علي إلى متولي و إبراهيم معلنًا لهما انتهاء الفترة الكوميدية، وأنه قد حان وقت الجد، فقد أزفت الآزفة، أمسك سماعته قائلًا:

– دعني أطمئن عليك يا بطل.

ووضعها على بطنه وقلبه ثم ابتسم قائلًا:

– لقد تعافيت الآن، وأصبحت بكامل قواك.

– الحمد لله.

– أتشعر بأي ألمٍ أو تشكو من أي خطب؟

– نعم، فرجلاي ثقيلتان جدًّا ولا أستطيع تحريكهما بل لا أكاد أشعر بهما، وقد ذكرت لك ذلك من قبل.

تنحنح الدكتور علي كأنه يستجمع قوة صوته ثم قال:

– لا أخفي عليك يا وليد .. لقد أثر الحادث على رجليك.

غطى وليد بطنه وحمل جسده على يديه ليعتدل، وقد بهتت ابتسامته كالزهور الذابلة قائلًا:

– لا أفهمك يا دكتور، كيف أثر الحادث على رجلي؟!

أجاب الدكتور علي بتوترٍ هادئ:

– أثناء اصطدامك بالسيارة، تعرض عمودك الفقري لكسرٍ في فقراته.

تحدث وليد بفزعٍ قائلًا:

– لا أفهمك.. لا أفهمك، فسر بطريقةٍ أفهمها رجاءً.

صمت الدكتور علي وعيناه تجوبان المكان كأنهما تبحثان له عن إجابةٍ معلقة في أحد أركان الغرفة، فقال وليد ممزقًا صمته:

– تكلم يا دكتور.

أجاب الدكتور علي بأسى:

– لقد أصبت بشللٍ نصفيٍّ أثر على رجليك وأفقدهما الشعور ووصول رسائل المخ وإشاراته إليهما.

سأل وليد مصدومًا:

– تقصد أني أصبحت عاجزًا؟!!! أصبحت مقعدًا، أتقصد ذلك؟!!! أجبني لا تصمت.

– إنه قضاء الله يا وليد .

تحدث متولي كاتمًا آهاته ومانعًا عبراته:

– قدر الله وما شاء فعل يا بني.

وقال إبراهيم مواسيًا:

– هوّن عليك يا وليد فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.

سالت عينا وليد بصمتٍ قاتل، لا عويل له ولا بكاء، صرخات يصرخها قلبه ولم تسمعها آذان الموجودين لكن شعرت بها قلوبهم حتى كادت أن تصعق، تخيل نفسه عاجزًا، تخيل نفسه عالة على والده الشيخ الكبير، تخيل أنه أصبح كذلك مقعدًا بلا عمل، ورأى قصور طموحاته تتهدم

أمامه، وكلما جال في خاطره أمر تفيض عيناه ألمًا وحزنًا، لكنه تذكر أيضًا كتاب أمس وفضل الصابرين، وتذكر قول النبي المصطفى: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى."

فردد بصوتٍ يخنقه الحزن: الحمد لله.. الحمد لله.

لم يحتمل متولي صمت ابنه ولا دموعه، فانهار من صعوبة الموقف واحتضنه بكلتا يديه ثم فتح للبكاء الأبواب على مصراعيها، واكتفى بالبكاء، فلا يوجد كلام على وجه الأرض يمكن أن يواسي أو يلطف من لهيب الحدث، وعندما يبكي رجل قد تجاوز الستين من عمره، فحتمًا سيرق من بكائه الحجر الأصم، سكت الكلام فما تسمع إلا أنين الباكين، خيم الحزن بسحبه السوداء على الغرفة التي امتلأت منذ لحظات بأصوات الضحك الذي تلألأ كالنجوم، ذلك الضحك الذي كان له رائحة الورود.

أما إبراهيم .. هذا الشاب الطيب الحنون كلما مسح دمعًا جرى على خده آخر، بل وحتى الدكتور علي والذي من المفترض أنه قد تعرض لعشرات الحالات المشابهة، إلا أن قوته قد خذلته وفقد السيطرة على دموعه.

الجميع يبكي كأن قلم القدر الذي كتب لهم الضحك هو ذاته الذي أقسم أن يبكيهم جميعًا، وكأن القدر قد جلد ضحكاتهم حتى سالت دمعًا، وجلد قلوبهم حتى ذاقت وجعًا.

متولي يتوسل إلى وليد باكيًا ليتحدث، بل وصل الأمر إلى أن خر متولي على يد وليد ليقبلها حتى يجيبه، فما استطاع وليد رغم هول مصيبته أن يرى هولًا أعظم وأشد من انكسار أبيه وحسرته عليه، فاحتضنه بشدةٍ وصرخ باكيًا بأعلى صوته قائلًا:

- وددت أن أكون سندك يا أبى، الآن ستكون أنت سندي.. أردت أن أحملك في كبرك كما حملتني في صغري، والآن ستحملني صغيرًا وكبيرًا.

ثم صرخ بصوتٍ عالٍ وهو يبكي:

- آسف يا أبى، فقد أصبحت مشلولًا، لا أستطيع أن أخدم حتى نفسي، آسف يا أبى، لقد أصبحت عاجزًا، أخبر أمي أني آسف، فقد وعدتها بالحج وأخلفت، أخبرها أني آسف، فلن أستطيع أن أجهز حتى إفطاري كما كنت أفعل، أرجوك يا أبي، بلغها أسفي.. بلغها أسفي أرجوك!

وضع متولي يده على فم وليد وصاح به قائلًا:

- اصمت وكفاك هراءً، ستتعافى وتقف على قدميك من جديد، فالله على كل شيءٍ قدير، لا تيأس يا ولدي وقل الحمد لله.. قل الحمد لله.

فردد وليد وهو يبكي:

- الحمد لله على كل حال.. الحمد لله.

اكتفى الدكتور علي و إبراهيم بالمشاركة في الدموع فقط، وقد تنحيا عن الكلام، فالموقف قد فاق كل التقديرات، وعجزت معه كل العبارات، اكتفوا فقط بالعَبرات، ليس فقط الدكتور علي و إبراهيم بل حتى سرير وليد يهتز، لا من بكاء وليد وأبيه عليه، بل يهتز لأنه يبكي أيضا على هذا الشاب، وذلك اللون الفاتح على جدار الغرفة يشعر بالخجل، لا بل يشعر بالعار، ويتمنى أن يُدهن بالقار ليشاركهم الأحزان، وحتى المروحة لا تدور بالكهرباء، فمن ينظر إليها بعين قلبه، يرى أن بعضها يجري خلف البعض الآخر ليواسيه فيرفض المواساة، ويجري هائمًا في مداره، وترسل إليهم الهواء على استحياء، لا لينعشهم لكن ليلطف حرارة دموعهم ولهيبها الذي اشتكى منه الخد.

خيم الصمت وكأن كل واحدٍ منهم قد اختلى بذاته يحدثها، وفي حديث وليد مع ذاته تذكر حينما اشتكى للدكتور علي من صعوبة تحريك رجليه وعدم الشعور بهما، وتذكر رده عندما أخبره أن ذلك من تأثير المخدر، بل وتذكر أكثر من ذلك، فقد تذكر ذلك السائق اللاهي الذي كان السبب فيما وصل إليه، ويمكن أن أقول بأنه شريط مصور قد مر على وليد يحمل بين طياته الأيام الماضية بكل ما فيها من أوجاعٍ وآلام.

أبعد وليد أباه عن حضنه قائلًا:

– دعوني بمفردي رجاءً، أريد أن أختلي بنفسي.

نظر متولي إلى الدكتور علي وسأله بلغة العيون:

– هل نتركه كما يريد أم أن هذا يشكل خطرًا عليه؟

فأجابه الدكتور علي باللغة نفسها:

– لا تقلق، وهيا بنا.

سلّم الجميع لطلب وليد بعد أن فهموا أنه أمر وليس بطلب، فأداروا ظهورهم واتجهوا نحو الباب ثم سمع متولي سؤالًا:

– هل أمي تعرف ؟!

أجاب نافيًا ــ ولم يدر ظهره ــ برأسٍ منكسة يهزها يمينًا ويسارًا ببطءٍ ثم خرج.

خرج الجميع وانغلق الباب، اختلت دموع وليد بعينيه فهتكتهما، وأرعد صوته بالبكاء، هبت رياح الأسى لتحرك سحاب الألم، وخاضت نفسه في وحل الحسرة، واستغل اليأس بأس الظروف، انقض عليه ينهش روحه، وعوت ساعة الحائط بالتشاؤم، ونعق غراب الوحدة فوق رأسه، فجأة يلمح وليد فارسًا بحصانٍ أبيض يعدو نحوه وقد استل سيفه وقوسه وصوّبه نحو الألم والحسرة والوحدة والعبرة، أطلق سهمًا مكتوب عليه أليس الله بكافٍ عبده فطارت كلها تهرول وتجري قائلة:

– بلى.. بلى.

واقترب الفارس من وليد وقد حلق عنه غراب الوحدة، ينعق مبتعدًا فقال الفارس: اصبر وما صبرك إلا بالله.

سأل وليد متعجبًا: من أنت؟!!

– أنا عملك الصالح، أنا دعوة أبيك، ورضا أمك، أنا حسن خلقك.

وصار يردد ذلك ويبتعد.. و وليد يناديه:

– انتظر.. انتظر.

فلم يجبه، فنادى عليه من جديد:

– عد إليّ، لا تذهب.. لا تذهب!

شعر وليد بأبيه والدكتور علي و إبراهيم فوق رأسه يوقظونه هازين جسده هزًّا صارخين:

– وليد .. وليد استيقِظ.

فقام فزعًا تجوب عيناه فيمن حوله، فسألهم:

– أين الفارس؟ أين ذهب؟

– لقد كنت تحلم يا بني.

– أحلم؟!! أكان هذا حلمًا؟!

أجاب الدكتور علي :

– نعم، كنت تحلم، لقد دخلنا فوجدناك نائمًا تنادي أحدهم.

استرخى وليد على سريره وعلم أن هناك رسائل كثيرة خلف ما رأى، مفادها اصبر وسنرضيك .

نظر الثلاثة إلى بعضهم البعض ملتمسين العذر لــ وليد ومفسرين ذلك بالصدمة النفسية والعصبية التي تعرض لها.

نظر إليهم قائلًا:

– لا تقلقوا، فما زلت بخير، والحمد لله على كل حال.

ثم نظر لأبيه قائلًا:

– لا تخبر أمي بإصابتي، وقل لها...

ثم صمت مفكرًا وقال:

– حسنًا، لا تخبرها شيئًا، أنا سأدبر أمري.

تحدث إبراهيم قائلًا:

– كيف حالك يا وليد ؟

– الحمد لله يا إبراهيم .

– أريد منك طلبًا يا وليد .

– وما هو؟!!

– بعدما تخرج من هنا بخير وسلامة، أريدك أن تعمل معي في شركتي المتواضعة حتى تتشرف بك.

– جزاك الله خيرًا على عظيم أخلاقك، لكن أما علمت أني رجل قعيد كَلٌّ على مولاه؟!

- لا تقل هذا، فبالإرادة والعزيمة، كل صعبٍ يهون، كما أن للشركة أتوبيسات لنقل الموظفين من منازلهم.
- لكني لا أفهم في عملكم شيئًا.
- لا عليك، ستعمل في قسم المحاسبة وسأعلمك أمورها بنفسي.
- بارك الله فيك يا إبراهيم .. سأفكر في عرضك لكن اعذرني، فأنا في حاجةٍ لفترة نقاهة.
- خذ ما تريد من الوقت، فالعرض مفتوح، لا تقلق.

انتهى موعد الزيارة، وودعوا وليد ثم غادروا الغرفة واجتمعوا في مكتب الدكتور علي الذي شكر إبراهيم على موقفه الطيب نحو وليد ، فرد قائلًا:

- لقد أصبح وليد أخي، وليس فقط صديقي.

أجاب متولي قائلًا:

- بارك الله فيك يا بني، فأنا عاجزٌ عن شكرك.
- لا تقل هذا يا أبا وليد .. ويكفيني منك حسن دعائك.

استأذن متولي و إبراهيم من الدكتور علي وخرجا مغادرين، وبعد نزولهما من المصعد أثناء مرورهما أمام مكتب الحسابات استوقفهما الموظف بأدب، وأعطى متولي إيصالًا بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه في حاجةٍ

للسداد، فبهت متولي من المبلغ الذي لا يملك منه إلا ثلاثة أرقام فقط، وهى ٠٠٠ وسأل بغضبٍ قائلًا:

– لمَ كل هذا المبلغ؟!!

أجابه الموظف قائلًا:

– تكاليف العلاج والرعاية، وما إلى ذلك من متطلبات المريض واحتياجاته.

أخرج إبراهيم دفتر إيصالات من جيبه ثم كتب فيه المبلغ ووقع عليه وأعطاه للموظف، فأخذه وانصرف.

اعترض متولي قائلًا:

– لا يا بني، سأدبر أمري، لا حاجة لهذا.

أجاب إبراهيم بأدبٍ قائلًا:

– أنا الآن مثل ابنك، ولا فرق بين الابن وأبيه.

احتضنه متولي بشدةٍ قائلًا:

– فرج الله همك وستر عرضك، فأنت هدية الله لنا، ومنحته في هذه المحنة.

ثم خرجا من المستشفى، وودعه متولي بينما رفض إبراهيم وداعه وأصر أن يوصله بنفسه، فرضخ لإصراره، وسلم له.

وصل متولي إلى المنزل، وأصر أن يشاركه إبراهيم الغداء أو حتى كوب شاي، إلا أنه اعتذر بأدبٍ وأكد على ضرورة تواجده الآن في الشركة، فودعه متولي ثم غادر.

(٦)

دخل متولي بيته سعيدًا راضيًا، فلاقته صفية بوجهٍ متجهم ووجنتاها ستنفجران لامتلائهما بالغيظ ثم قالت ساخطة:

– لماذا تأخرت طالما منع الدكتور الزيارة؟ أنا متأكدة أنك كذبت علي.

ابتسم متولي ومد يده إلى خدها يداعبها قائلًا:

– أبعد كل هذه السنوات، أكذب عليكِ يا حلوتي؟!

لقد فهم متولي شخصية زوجته وعرف أنها طيبة القلب وأقل القليل يرضيها، وبعد هذه الملاطفة انطفأ غضبها، واستكمل حديثه قائلًا:

– لقد ذهبت إلى المقهى، وجلست مع أصدقائي الذين اشتقت إليهم.

– كان ينبغي أن تأتي لتطمئنني على وليد أولًا ثم تذهب حيثما تريد، طالما أن هاتفك مغلق.

– وليد في أحسن حال، وسيكتب له الدكتور علي خروجًا قريبًا.

تهلل وجهها وحمدت ربها ثم احتضنت زوجها، فمازحها قائلًا:

– كم اشتقنا إلى هذه الأحضان.

فابتعدت عنه بخجل السبعة والأربعين عامًا، وقد احمر وجهها وتهلل كأنها في العشرين من عمرها، وكما يقول أهل الحب:"المرأة زهرة تتفتح بالاهتمام."

ضحك متولي لخجل زوجته ثم اقترب منها وقبّل يدها قائلًا:

– لا حرمني الله منكِ يا شمس نهاري، وقمر ليلي، يا زهرة بستاني، ويا حور الجِنان.

ذابت صفية شوقًا وعشقًا لزوجها الذي يدللها بعباراتٍ رقراقة، تتلألأ وكأنها سيمفونية لبيتهوفن أو كتغريد البلابل وزقزقة العصافير، وتزداد سعادة متولي فهو كالساحر الذي نجحت ترتيلاته وشعوذته في السيطرة على جنٍّ وعفريتٍ ومارِدٍ امتزجت قوتهم معًا، لا بل إن غضب صفية قد يفوق قوى الثلاثة مجتمعين، إلا أن تميمة الحب التي يعلقها متولي على

قلبه تحميه من غضب صفية وثورانها، فما كان للمحب أن يؤذي محبوبه أبدًا.

نترك هذا الثنائي الذي واجه حبهما الزمن وتحصن ضد غاراته بالمودة والرحمة وحسن المعاشرة ثم ننتقل إلى مكانٍ آخر ووجوهٍ أخرى، إنه الدكتور علي .. ذلك الطبيب الماهر في عمله والطائع لربه، وهو الآن في طريقه إلى غرفة وليد وما زال الليل طفلًا يحبو في أوائل عمره، استأذن الدكتور علي قبل الدخول بطرقاتٍ لاطفت بحياءٍ الصمت المخيم على الأرجاء، حيث لا زوار، ولا وجبات توزع، إلا أنه لم يجبه أحد، فازدادت طرقات الباب قوة واتسعت طبلة الأذن منتظرةً الإذن بالدخول، لكنه أيضًا لم يحدث، وما سمعت الأذن شيئًا إلا ارتفاع دقات القلب تُحدث بعضها بعضًا أن سوءًا قد أصاب وليد وتشرب عقل الدكتور علي هذه الهواجس، ففتح الباب بفزعٍ وسرعة ثم ما لبث أن تنفس الصعداء وخابت بفضل الله ظنون القلب.. إنه يصلي.

جلس الدكتور علي على الكرسي يعاتب سوء ظنه ويتنفس بعمقٍ معوضًا ما فقد من أنفاسٍ حتى أنهى وليد صلاته على سريره، فبادره قائلًا:

– تقبل الله.

أجاب وليد مبتسمًا:

– منا ومنكم.

– لقد أقلقتني عليك بعدم ردك.

رد وليد ساخرًا:

– لقد فقدت رجلي لكن لم أفقد عقلي.

ضحك الدكتور علي وشعر أن روح الدعابة قد بدأت تعود إلى وليد من جديدٍ، فقال:

– أنت من المرضى القلائل الذين سكنوا قلبي وتربعوا على عرشه.

رد وليد ضاحكًا:

– كم مريضًا أخبرته هذا الكلام قبلي؟!

أجاب الدكتور علي ضاحكًا:

– لا أتذكر.. ربما تسعة أو عشرة.

غمرهما جو من الضحك، كان قد غاب عنهما وافتقداه ثم قال وليد :

– يشهد الله أنك في منزلة أبي.

لم يجد الدكتور علي ردًّا ولا قولًا يليق بما قاله وليد إلا أن قام من مكانه واحتضنه ثم دمعت عيناه سرًّا على هذا الشاب الصغير، وشعر وليد بأمانٍ وحبٍّ لم يشعر بهما منذ فترة، جفف الدكتور علي دموعه الهادئة ثم ابتعد عن وليد قائلًا:

– كن على يقينٍ بأن ربك رحمن رحيم، وأنه لا يغلق بابًا بحكمته حتى يفتح أبوابًا برحمته، وفي سورة الكهف عندما خرق العبد

الصالح سفينة المساكين، غضب سيدنا موسى كثيرًا، وظن أنه يريد بهم سوءًا إلا أن العبد الصالح كان يعلم ما لا يعلمه سيدنا موسى عليه السلام؛ فقد خرق السفينة لا ليضرهم، لكن لينفعهم، لا ليبتليهم لكن لينجيهم، فبخرقه للسفينة نجت من سطو الملك الجبار عليها، وبذلك يا وليد فإن الإنسان مثل سيدنا موسى عليه السلام في هذا الموقف، نظرته قاصرة، ولا يعرف مراد الله من المصيبة، لذلك لابد أن يثق بربه ويعلم علم اليقين أن الله ما ضره إلا لينفعه وما حطه إلا ليرفعه.

استمع وليد بانتباهٍ شديد بينما كان في غاية الإعجاب بحديث الدكتور علي كما أنه كان منبهرًا بحسن اختياره للقصص، وانتقائه للكلمات، ويهز رأسه لأعلى وأسفل بهدوءٍ كناية عن فهمه لمراد الدكتور علي وتسليمه لمراد الله.

استطرد الدكتور علي قائلًا:

- سأقص عليك قصة أخرى في حسن الظن بالله سبحانه وتعالى كان هناك أعرابي ومعه ولده، يسافران إلى قريةٍ بعيدة جدًّا، فأعدا العدة لهذه الرحلة الشاقة وركبا الحمار ثم انطلقا صوب غايتهما متوغلين داخل الصحراء حتى أنهكهما الإرهاق، فخيما ليستريحا من عناء الطريق، وما أن انغلقت عيونهما حتى خرج عقرب لدغ بقوةٍ الابن، فصرخ من شدة الألم، قام الأب مهرولًا يضع على قدمه الأعشاب مرددًا: "الحمد لله، لعله خير".. استشاط الولد غضبًا من

أبيه، فأين الخير في لسعة العقرب؟! لكنه كظم غيظه وطال ألمه، فعطل ذلك من سيرهما نحو القرية والذي لم يستكملاه في وقته المناسب، وبعد فترة ليست بالقصيرة قاما ليستكملا طريقهما، ونظرًا لصعوبة الطقس ليلًا وتقلباته مرِض الأب، وارتفعت حرارته مما أجبرهما على إيقاف الرحلة حتى يشفى الأب الذي ما انفك عن قول:"الحمد لله، لعله خير"..أما الابن فاستشاط غضبًا محدثًا نفسه: "أي خيرٍ في لسعتي، ومرض أبى؟!" ولم يجد إجابة مقنعة، أشرق الصباح وتحسن الأب ثم استكملا الرحلة من جديد، ونظرًا لطبيعة الطريق الصحراوية والصخرية، إلى جانب هزة أرضية حدثت فجأة فكُسرت قدم الحمار، نظراً لمباغت الهزة بالرغم من ضعف قوتها، وبهذا فلن يحملهم، فهو لا يستطيع أن يحمل حتى نفسه ، وكالعادة وبقلب المؤمن المحسن الظن بربه، ردد الأب: "الحمد لله، لعله خير".. هنا لم يستطع الابن أن يخفي غضبه، وثار صارخًا:"أي خيرٍ في كل هذا؟!! أتعرض للسعة عقرب كادت تقتلني وتقول لعله خير، تمرض وتتعب وتقول لعله خير، وأخيرًا تنكسر قدم الحمار وتقول لعله خير، أي خيرٍ هذا الذي تتحدث عنه؟!!"

عذر الأب جهل الابن وقال بهدوء الحكيم: "يا بني، نحن عباد الله وهو أرحم بنا من أنفسنا، وكل هذه المصائب إنما تخفي في جوفها رحمة لا نراها ولا نعرفها، لكن ما نعرفه هو ثقتنا بالله."

لم يقتنع الابن بكلام أبيه واكتفى بالصمت، أكملا الرحلة بلا حمار، وبعد مشقةٍ وعناءٍ وصلا إلى القرية المطلوبة وكانت المفاجأة، لقد حدث زلزال دمر القرية عن بكرة أبيها ولم يترك فيها أخضرًا ولا يابسًا، حزنا حزنًا شديدًا على ما حدث لها، نظر الأب إلى ابنه قائلًا: "ألم أقل لك يا بني، لعله خير؟! فلو وصلنا في موعدنا لهلكنا مثلهم، لكن الله سلم ووضع كل هذه العقبات والعراقيل أمامنا والتي بدت بمثابة مصائب، لكنها في الحقيقة لطائف خفية من الله حفظنا بها."

لقد فهم الابن الدرس وقال معتذراً: "حقًّا يا أبي، الحمد لله ولعله خير."

ازداد إعجاب وليد بالدكتور علي وفهم مراده ثم ردد قائلًا:

- الحمد لله، لعله خير.

ابتسم الدكتور علي قائلًا:

- أحسنت يا وليد .. الحمد لله ولعله خير.
- لكن عندي سؤال يا دكتور.
- تفضل يا وليد .
- هل تركا للحمار برسيم وماء؟!!

قلب الدكتور علي كفيه محوقلاً ثم قال:

– حقًّا، الحمير على أشكالها تقع.

ضحك الاثنان ضحكات عالية تطرب لها الآذان وتتفتح لها القلوب، فهي ضحكات صافية نقية، غسلت ما علق بالقلب من مآسي، ومسحت ما غطى الوجه من هموم. وبعد أن سكن الضحك الذي ما زالت آثاره مرسومة على الوجهين؛ سأل الدكتور علي سؤالاً يؤكد فيه ل وليد أنه ما زال عضواً فعالاً في أسرته ومجتمعه، وأن الإعاقة لا تعني الدعة والخمول فسأل:

– ماذا قررت أن تعمل بعد خروجك من هنا؟

– لقد فكرت في هذا السؤال كثيرًا، وتعددت اقتراحاتي، أنا في حيرة، أيهما أفضل وأيهما اختار؟!

– شاركني لعلي أفيدك.

– فكرت في العمل التسويقي على الإنترنت، فقد سمعت أنه عمل مربح، كما أنه لا يحتاج إلى أرجل، وفكرت كذلك في إعطاء دروسٍ خصوصيةٍ للمرحلة الابتدائية؛ فأنا ماهر في اللغة العربية والحساب، وآخر اقتراح هو العمل مع إبراهيم في شركته.

– ولماذا جعلته الخيار الأخير؟!!

– لا أريد أن أكون عالةً وحملًا على أحد.

- لماذا تفكر في الأمر بهذه الطريقة السيئة؟ لمَ لا تعتقد أنه بالفعل يريدك ويحتاج إلى مجهودك كأي موظفٍ لديه؟!!
- لم أفكر فيها هكذا، لا أخفى عليك، فتعاملي مع الموقف سيكون بحساسيةٍ شديدة.
- دعك من هذا الهراء، فأنا أؤيد هذا الاختيار.

أجاب وليد باسمًا:

- ولماذا؟!
- لأنه سيربحك مالًا وهذا أولًا، وثانيًا: سيجعلك تتشارك مع الناس ولا تعيش في عزلةٍ عن المجتمع كالعمل التسويقي على الإنترنت، وهذا هو الأهم.
- أعتقد أنك على حق، كما أنني لم أعتد على البقاء في المنزل.
- أحسنت، كما أنني أريد أن أؤكد لك شيئًا يا وليد .. أول انتصارٍ لك سيكون على نفسك ثم ستنتصر بعد ذلك على هذه الإعاقة.

رد وليد منبهرًا:

- من أين تأتي بهذا الكلام الرائع؟!!
- إنها التنمية البشرية يا ولد.
- لا بد أن أشتري كل كتبها وأقرأها حتى أصبح مثلك.
- والعمل مع إبراهيم ..أنسيته؟!

- لا، لكني سأعمل معه صباحًا وأتفرغ للقراءة ليلًا.

- صباحًا ومساءً!! ألن ترتاح؟ ألن تنام؟!

- لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

وقالت أم كلثوم: ما أطال النوم عمرًا، ولا قصر في الأعمار طول السهر!

تحدث الدكتور علي مهللًا:

- الله.. الله، يا لك من رائع! ما خابت نظرتي فيك، لكن متى ستبدأ؟!

- بعد أن تصدر عفوك عني وتطلق سراحي من مشفاك هذا.

قال الدكتور علي ضاحكًا:

- هل يرضيك أن أعفو عنك غدًا؟

تهلل وجه وليد وجحظت عيناه فرحًا ثم قال:

- حقًّا أم تمزح معي؟!

- ما اعتدت أن أمزح مع أطفالٍ يا ولد.

رد وليد بسخرية:

- أطفال.. أطفال، المهم أن أخرج من هنا.

- سأكتب لك خروجًا غدًا بإذن الله.

قفز وليد فرحًا على الدكتور علي الجالس بجواره على السرير واحتضنه بشدةٍ قائلًا:

– أنت أفضل طبيبٍ في العالم.

ضحك الدكتور علي قائلًا:

– كفاك نفاقًا يا وليد .

– لست منافقًا، فأنت بالفعل كذلك، لكن أستأذنك أن تخبر أبي بذلك.

قام الدكتور علي من على السرير قائلًا:

– سأخبره إن شاء الله، وكفاك سهرًا، فقد تأخر الوقت أيها الثرثار.

رد وليد مازحًا:

– الثرثار من جلس على سريري ومنعني النوم.

قال الدكتور علي رافعًا حاجبه إلى سقف رأسه وخافضًا الآخر حتى غطى عينه:

– إذًا أنا الثرثار؟!

أجاب وليد بلا مبالاة:

– بكل تأكيد.

– إذًا بكل تأكيدٍ ليس لك خروج من هنا غدًا.

رد وليد صارخًا وهو يضحك:

- بكل تأكيدٍ أنا الثرثار، بل كبير الثرثارين، العفو والسماح يا سيادة الطبيب الأكبر.

وتعالت أصوات الضحك من جديد الذي ملأ الغرفة سعادةً وبهجة ثم انصرف الدكتور علي مودعًا وليد ومتمنيًا له السعادة والتوفيق. حضر متولي بمفرده إلى المستشفى فرحًا مسرورًا لمكالمة الدكتور علي أمس الذي بشره بخروج وليد وقد استطاع متولي بعد عناءٍ شديد ومفاوضاتٍ صعبة أن يقنع صفية بالبقاء في المنزل، وأن الأمر لا يتطلب حضورها، ومن الأفضل أن تبقى حتى تعد لـ وليد طعامًا شهيًا بدلًا من طعام المستشفى الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

دخل متولي على الدكتور علي وشكره على حسن صنيعه مع وليد وجهده معهم، فأجاب بأن هذا واجبه الذي سيُسأل عنه أمام الله، وخرجا من المكتب ثم ذهبا إلى وليد الذي استيقظ فجرًا فصلى، وما استطاع أن ينام مرة أخرى لفرط سعادته بنبأ الخروج، وما أن طرقا الباب حتى تهلل وجهه وأذن للطارق بالدخول، فانطلق متولي بسرعة نحو ابنه يحتضنه بشدةٍ قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا وليد .. الآن ستنير بيتك من جديد.

- طالما أن البيت فيه الشمس والقمر، فهو منير دائمًا يا أبي.

تحدث الدكتور علي قائلًا:

– البيت في حاجةٍ إليك أيها الكوكب حتى تكتمل المجموعة الشمسية.

رد وليد مبتسمًا:

– من يغلبك في الحديث يا دكتور؟! صباح الخير.

أجاب الدكتور علي باسمًا:

– صباح الخير يا وليد .

ثم قال متولي :

– هل نستطيع أن ننصرف الآن يا دكتور؟ فأمه على أحر من الجمر.

– أنهِ إجراءات الخروج وبإمكانك المغادرة.

– حسنًا، لن أتأخر.

وذهب مسرعًا..

سأل الدكتور علي قائلًا:

– أما زلت عند أفكارك ومشاريعك أم أن كلام الليل مدهون بزبد، تخرج عليه الشمس فيذوب؟!

تعجب وليد كأنه أول مرة يسمع هذا الكلام، وقال باستغراب:

– أي أفكارٍ وأي مشاريع هذه التي تتحدث عنها؟!!

اتجه الدكتور علي نحو الباب مناديًا:

– يا عم متولي ارجع، فلن يخرج اليوم.

صاح وليد ضاحكًا:

– تذكرت.. تذكرت، أتقصد عملي مع إبراهيم وكتب التنمية البشرية؟

– لا ليست هذه.

ثم نادى مرة أخرى: يا عم متولي .

صاح وليد :

– بل هي يا دكتور، واستعذ بالله من الشيطان، ألا تذكر أنك سمحت لي بالخروج ونعتني بالثرثار؟!

أجاب الدكتور علي بسخريةٍ ضاحكة:

– لا أتذكر أيها الثرثار.

تعالت الضحكات منهما كأنهما يعلمان أنهما سيفتقدان بعضهما البعض، وقطع صوت ضحكهما حضور متولي السريع ومعه إبراهيم الذي دخل وحيا الدكتور علي ثم احتضن وليد سائلًا عن حاله، فأجاب حامدًا ربه، وشاكرًا لـ إبراهيم .

اتجه الدكتور علي إلى متولي قائلًا:

– إنها المرة الأولى التي ينهي فيها أحد الإجراءات بسرعة!

– جزى الله خيرًا المهندس إبراهيم .. فلقد أنهى جميع الإجراءات.

تحدث إبراهيم قائلًا:

- اتصلت بالدكتور علي أمس، فأخبرني أنك ستخرج غدًا، وأنا أعرف روتين الإجراءات، وثِقل دمها، لذلك تبرعت لك يا صديقي أن أنهيها لك بنفسي.

رد وليد شاكرًا:

- بارك الله فيك، وجزاك خيرًا يا صديقي، حقًّا رب أخٍ لك لم تلده أمك.

- أنت تستحق هذا يا وليد .

قال وليد مازحًا:

- هيا.. هيا احملوني خارج هذا المكان الممل.

تحدث الدكتور علي قائلًا:

- الآن أصبح مملًّا أيها الثرثار؟! ثم قال بنبرة حزينة... إنه بالفعل سيصبح مملًّا، لكن بعد أن تغادره أنت.

- كيف يصبح مملًّا وبه رجلٌ عظيمٌ مثلك؟!

- كفاك نفاقًا يا ولد.

- يشهد الله أني أحبك وأحترمك بمثابة أبي، ويشهد الله أني ما أريد الخروج من هنا لأني قد تعلقت بك كثيرًا.

اقترب الدكتور علي من وليد واحتضنه، وما أن لامس جسده، حتى فاضت الروح من العين دمعًا لألم الفراق، وقد بادله الدكتور علي الدموع النقية الطاهرة نفسها قائلًا:

- سأشتاق إليك أيها الثرثار، هل ستزورني؟

- إذا رأيتني هنا مجددًا، اقطع رأسي.

ضحك الدكتور علي وقفزت من ضحكته دموع خده على كتف وليد قائلًا:

- كم أنت وضيع أيها الثرثار!

- لن أزورك هنا، بل ستجدني دومًا عندك في منزلك يا أبي.

احتضنه الدكتور علي بشدة.. رفقًا به يا وليد .. أما علمت أنه لم ينجب؟! وأنه منذ تعامل معك اعتبرك بالفعل ابنه الذي لم ينجبه، فقد رأى فيك الولد الصالح الذي لا يترك فرضًا، والإبن البار الذي يحب والديه ويطيعهما ويحسن إليهما، كما رأى فيك جمال الروح وخفة الظل، فما أروعك من شابٍّ يا وليد !

انتهت مراسم التوديع بلون الحزن والأسى، وأجلسوا وليد على كرسيٍّ متحركٍ يدفعه إبراهيم حتى وصلوا إلى المصعد وهبطوا من خلاله، وعند مرورهم أمام مكتب الحسابات نادى أحد الموظفين إبراهيم الذي استأذنهم وذهب إليه، فأعطاه الموظف إيصالًا ومالًا، كأنه ما تبقى من مالٍ كان قد دفعه عند إنهائه للإجراءات..يرى متولي كل هذا وتيقن أن

إبراهيم إنما سبقه لإنهاء إجراءات الخروج ليدفع ما تبقى من حسابٍ لكي لا يحرجه ويضعه في موقفٍ صعب.

قفل إبراهيم عائدًا وأحضر سيارته ثم هبط وساعد وليد على الركوب وبدأوا طريق العودة.

قال وليد :

- جزاك الله خيرًا يا إبراهيم .. فالله وحده من يمكنه مكافأتك على صنيعك.
- لا تقل هذا يا وليد .. فلقد أصبحت صديقي، وهذا واجب الصديق نحو صديقه.

وبعد فترة من الزمن تجهم وليد واختفت بسمته وخيم عليه الصمت ثم اكتسى حزنًا وأصبح لمشاعر الأسى السيادة على حالته؛ إذ أنهم مروا على مكان الحادث، صالت نفسه، وجالت آلامه النفسية التي يتمنى من الله أن تبرأ كما برأت آلامه الجسدية، وألا يبقى منها أثرًا كالأثر الجسماني الذي سيعاني منه طوال حياته، تنفس بعمقٍ وردد سرًّا: الحمد لله.

(٧)

وصل وليد ومن معه إلى المنزل ثم خرج إبراهيم مسرعًا من سيارته، فتح حقيبتها الخلفية وأخرج منها كرسيًّا متحركًا، فتحه وقربه أمام باب وليد الذي اندهش قائلًا:

– ما هذا يا إبراهيم ؟! هذا كثير، هذا كثير جدًّا!

– كفى هراءً يا صديقي.

قال متولي :

– يا بني، لمَ تكلف نفسك كل هذا؟ فوالله لو كان شقيقه ما فعل ذلك.

– المال لله يا عم متولي وليس مالي، هيا يا وليد دعني أساعدك لتنزل.

فمد وليد يده ليمسك يد إبراهيم التي تساعده، و متولي ممسكًا بالكرسي، أجلساه عليه وأبعد إبراهيم متولي مستئذنًا بالدفع بدلًا منه قائلًا:

– دع عنك يا عم، وافتح لنا الباب.

أسرع متولي وفتح الباب ثم دخلا قائلين لـ وليد بصوتٍ واحد:

– حمدًا لله على سلامتك.

رد وليد أن سلمكم الله من كل شرٍّ ومكروه. وها هي صفية تأتي بسرعة الريح مهرولة من المطبخ نحو ابنها بعاصفةٍ من القبل والأحضان وعبارات الحمد والثناء داعية:

– لا حرمنا الله وجودك بيننا يا بني.

فقبل وليد يد أمه ورأسها قائلًا:

– ولا حرمنا منكِ يا أمي.

وجه متولي حديثه إلى إبراهيم قائلًا:

– لقد تشرفنا بك يا بني، وأعتذر لك عن تعبك معنا.

– بل أنا من تشرف بمعرفة أناس مثلكم يا عم متولي .

تحدث وليد قائلًا:

– نِعم الصاحب أنت يا إبراهيم .

ثم استطرد بابتسامة قائلًا:

– لقد أحببت الحادث لأنه عرفني بك يا إبراهيم .

– لا تقل هذا، فوالله لقد كنت أتمنى أن نلتقي في مناسبةٍ أفضل.

عقب متولي قائلًا:

– الله حكيمٌ، وهو أعلم بالخير وموعده.

انصرفت صفية وعادت بالحلوى والشاي تشريفًا لــ إبراهيم وبمناسبة شفاء وليد ثم قدمته إلى إبراهيم وما أن تذوق الحلوى حتى قال:

– سلمت يداكِ يا أم وليد .. ما أجملها!

أجابت صفية :

– بالهناء والشفاء يا بني.

قال وليد :

– كفاك كذبًا، لابد أن سكرها زائد كالعادة.

احمر وجه إبراهيم قائلًا:

– أنا أحب سكرها الزائد، اصمت أنت أيها اللئيم.

ضحك الجميع وقال متولي :

– لا تؤاخذه يا بني، فهذا طبعه ولن يغيره.

ودار بينهم الكلام وأطراف الحديث الذي يكسوه الدعابة والاحترام وحسن الأخلاق، ومع مضي الوقت استأذن إبراهيم واعدًا بتجدد الزيارة، فخرج وخلفه متولي يودعه حتى غابت سيارته عن الأنظار.

عاد متولي إلى المنزل ليجد وليد في حضن أمه التي اشتاقت إليه واشتاق إليها ثم ما لبث أن شاركهما متولي الأحضان والقبلات مردداً:

- الحمد لله على سلامتك يا بني، لقد أنرت منزلك من جديد.

- بارك الله فيكما يا أبي.

وبعد فترةٍ استأذنهما وليد وطلب دخوله غرفته حتى يستريح قليلًا، فساعداه في طلبه ووضعاه على سريره ثم انصرفا مودعين.

اختلى وليد بنفسه وظل يفكر في حاله وما آل إليه، يبدو أنه سيصاب بانتكاسة كما يقال، فاقتنصت الحسرة الفرصة وبدأت تذكره بالحادث وبإصابته الدائمة الناجمة عنه، شعر أنه سيخوض في وحل الألم، فاستعاذ بالله من شر ما يجد ويحاذر، وقال كما علمنا نبينا صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال."

فقصم ظهر الحسرة كأنها ضُربت بسيف الصبر الذي جعلها تتقلب كالدجاجة المذبوحة، وعدل من طريقة تفكيره طارداً الأفكار السلبية مبدلًا إياها بأفكارٍ إيجابية، تتمثل في العمل مع إبراهيم في أقرب وقت، وتحدي الإصابة، وقرر شراء كتب التنمية البشرية كما وعد الدكتور علي فما تأخر من بدأ.

وليد في غرفته يجالس أفكاره وتجالسه، وفي الغرفة الأخرى صفية تجالس متولي ويجالسها، وقد بدا عليها قلقًا لم تخفه، فسألت متولي :

– لمَ هذا الكرسي المتحرك يا متولي ؟!

أجاب متولي بخوفٍ قائلًا:

– الحادث كان قويًّا، وما زالت آثاره باقية على رجله، فقد أخذت نصيب الأسد من الصدمة.

حركت رأسها بخوفٍ متمنية صدق كذب زوجها الذي تعرفه.

كل يومٍ يمر يزداد قلق صفية عن اليوم الذي سبقه، متمنية من الله أن تكون علىً خطأ، فـ وليد لا يستطيع أن يحرك قدميه البتة، وكلما تكلمت مع متولي بهذا الشأن يكرر الكلام نفسه، وأنه سيشفى قريبًا، لكنها لا ترى أي بوادر لهذا الشفاء المزعوم.

اختلى متولي بـــ وليد وقال له:

– والدتك تحدثني كل يومٍ بشأن رجليك وعدم قدرتك على تحريكهما، فهي خائفة فزعة، فهلّا أخبرناها لتستريح، ويكون وقوع الصدمة خير لها من انتظارها؟

– حسنًا، لنعجّل بالأمر ولنجعله الآن.

ثم نادى أمه.

تفاجأ متولي من سرعة اتخاذ القرار حيث لم يعد له أي مقدمات، لكن يبدو أن وليد كان قد أعد كل شيءٍ مسبقًا.

أتت صفية بجسدٍ هزيلٍ، وقلبٍ ينبض استشعارًا بأمرٍ ما على وشك الحدوث، فـ وليد و متولي في جلسةٍ مغلقة أبوابها، وسرية أصواتها.

– خيرًا يا ولدي؟

هكذا قالت صفية ..

– اجلسي بجواري، أريد أن أخبرك شيئًا.

جلست في صمتٍ دون أن تجلس روحها التي ترفرف حول الغرفة بخوفٍ وترقب.

نظر وليد إلى أمه قائلًا:

– لو طلبت منكِ أن تختاري لي عروسًا، فكيف ستختارينها؟!

تعجبت صفية متيقنة أن هذا ليس الخبر الذي دعاها له، لكنها أجابت بقولها:

– سأختارها أفضل الفتيات دينًا، وخلقًا، وجمالًا، ونسبًا.

– وإذا وجدتِ فتاة بهذه المواصفات الرائعة، لكن الله أراد لي فتاةً غيرها، فأيهما تختارين لي؟ اختيارك وإرادتك أم اختيار الله وإرادته؟!

– بالطبع اختيار الله وإرادته، فهو الحكيم يا بني ويختار لعباده الأفضل.

ردد وليد قولها مبتسمًا:

– الله حكيم عليم، ويختار لعباده الأفضل، لكن ماذا لو لم يرضَ الإنسان بقضاء الله واختياره؟

قالت صفية مستنكرة:

– يكون كافرًا والعياذ بالله.

– وأنتِ يا أمي مؤمنة بالله ومسلّمة بقضائه واختياره، أليس كذلك؟

ردت بقلق:

– بالطبع يا بني.

فباغتها وليد قائلاً:

لقد أصبت في هذا الحادث بشللٍ في نصفي الأسفل، وهذا اختيار الله يا أمي وإرادته.

ثم احتضنها بشدةٍ قائلًا:

– قولي الحمد لله يا أمي.

صُدمت صفية بعينين جاحظتين، وقلبٍ منفطر، وانطلق بكاؤها بصوتها المرتفع، محتضنة وليد بقوة ثم قالت:

– آآآآه يا ولدي، لقد كنت أشعر أنكم تكتمون عني خبرًا سيئًا، وطفقت تبكي وتنتحب، وبكى وليد من جديد لحزن أمه وانكسارها ثم قال بصوتٍ متقطع من بكائه:

- قولي الحمد لله يا أمي، فأنا مؤمن بالله وراضٍ بقضائه، فهو حكيم يا أمي.. حكيم عليم.

قالت صفية بصوتها الباكي:

- الحمد لله، الحمد لله، يا حبيبي يا ولدي، آآآآآه يا وليد ، ليت الحادث أصابني أنت وليس أنت يا ولدي

اقترب منها متولي بأسًى يربت على كتفها قائلًا:

- أنتِ امرأة مؤمنة يا صفية .. لا تقولي هذا، اصبري وكفاكِ بكاءً، فإرادة الله نافذة، و وليد أمامك بخير حالٍ والحمد لله.

- لماذا لم تخبرني يا متولي ؟ لماذا؟!

وظلت تحتضن وليد بقوةٍ، وبكاؤها يحن له الحجر الأصم، ولم تتوقف إلا بعد وقت طويل جدا وقد خارت قواها، والمهم أنها تلقت الخبر، والحمد لله على ما شاء وقدر، وانتهى يومٌ عصيب كان لابد من مجيئه، فانتظار المصائب أحيانًا يكون أصعب من صدماتها.

الآن يركز وليد في قراءاته بذهنٍ صافٍ لأن القادم أجمل بمشيئة الله.

(٨)

مر أسبوعان و وليد ينهل من الكتب التي أرسلها له أصدقاؤه من المطبعة، وقد استفاد منها كثيرًا، وساعدته في الشفاء النفسي بدرجةٍ كبيرة، وخصوصًا عندما قرأ كتبًا لمتحدي الإعاقة، وقد قصوا فيها قصص نجاحهم وتميزهم، وكيف أصروا على التفوق والتميز، ورفعوا شعار كل ذي عاهة جبار وقد اعتنقوا المثل الأوروبي القائل:"إذا استطاع أي إنسانٍ القيام بعملٍ ما، فأنا أيضًا أستطيع."

اتصل وليد بـ إبراهيم ليخبره أنه في أتم الاستعداد للعمل وخوض غمار الحياة، فسعد إبراهيم بالخبر، وأخبره أن أتوبيس الشركة سيمر أمام بابه غدًا في تمام السابعة، فشكره وليد وودعه.

أخبر وليد أبيه وأمه بوظيفته الجديدة صباح الغد، فسعدوا غاية السعادة حتى تتحسن حالته النفسية أكثر فأكثر وقد استيقظوا جميعًا باكرًا، وصلى وليد الفجر في منزله وجهز نفسه وتناول إفطاره ولكن هذه المرة من إعداد والدته، لكن لله الأمر من قبل ومن بعد ثم خرج في الشارع

منتظرًا الأتوبيس ومعه والده يدفعه بالكرسي، وما هي إلا دقائق حتى أتى الأتوبيس وانطلق نحوه بفرحةٍ يكسوها التوتر، وساعد متولي ابنه في الصعود ثم اعتمد وليد أيضًا على قوة ذراعه حتى صعد، و صفية تودعه من أمام المنزل، يا لسعدك يا وليد ! فما بين باب المنزل وباب الأتوبيس نثرت أمامك دعوات والديك كأنها الزهور في قلب الربيع وكأنها الورود بعبق العبير، صعد وليد الأتوبيس ملقيًا التحية على من فيه، وجلس على الكرسي الأول الذي خصص له، صافحه السائق ليخبره بشدة توصية المهندس إبراهيم عليه، وأن طلباته كأنها أوامر شخصية منه ثم أخذ الكرسي المتحرك من متولي ووضعه بجانبه.

شكره وليد ودعا له ثم أثنى على إبراهيم خيرًا، وبدأت رحلة الأتوبيس الروتينية في جمع الموظفين وإحضارهم لمقر عملهم.. التوتر والقلق هما الشعار الرسمي لأول يوم عملٍ بالنسبة لكل البشر، وهذا بالطبع ما أصاب وليد .. فقد شرد ذهنه في ماهية العمل الذي سيؤديه، وطبيعة تعامل الموظفين معه، وكلما تعمق في التفكير، تعالت ضربات قلبه، وتسارعت أنفاسه، وعندما لاحظ هذا طبق ما تعلمه من التنمية البشرية في كيفية علاج التوتر ومحاربة القلق، فالتقط نفسًا عميقًا في أربع عداتٍ ثم كتم نَفسَه عدتين، ثم ببطءٍ أخرج زفيره في ثماني عداتٍ، وكرر ذلك أربع مرات، وما لبث أن هدأت مضخات قلبه وسكن توتره وانتظمت أنفاسه ثم غير تفكيره حتى لا يعود إليه القلق والتوتر من جديد، ففكر بإيجابيةٍ وقرر ألا يكون مجرد موظف عادي، فلابد أن يكون متميزًا، ذو بصمةٍ تفيد الشركة، وتزيد من أرباحها ليثبت جدارته وكفاءته، قطع

تفكيره المتواصل وصول الأتوبيس إلى مقر الشركة، وصوت السائق قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتكم.

قفز وليد مؤرجحًا نفسه بين أول كرسيين ساعيًا للنزول مما عطل طابور الموظفين المتزاحم داخل الأتوبيس الذي انقسم لفريقين؛ فمنهم من يقول: لمَ العجلة؟ هون عليك.

ومنهم من قال بضجرٍ: دعنا نمر وتأرجح كما يحلو لك.

واخترق هذه الأصوات صوتٌ غليظٌ والقول أغلظ قائلًا: إذا كانت الشركة تخسر بأصحاب الأرجل، فكيف يوظفون المعاقين؟!

الله وحده يعلم كيف أصاب هذا الصوت وليد في مقتل، ومزق قلبه تمزيقًا، ربت على كتف وليد شابٌّ مبديًا ابتسامة بلون الورود قائلًا: دعني أساعدك يا أخي، إنه أحمد يبلغ من العمر حوالي ثلاثين عام، فأخذ بيد وليد وأعانه، وقد سبقهم السائق بإنزال الكرسي ووضعا وليد عليه.

قال أحمد مبتسمًا:

- نتمنى أن تسعد معنا في العمل.

رد وليد بابتسامةٍ في شكلها لكن طعمها حنظل كطعم كلام صاحب الصوت الغليظ، وهذا الطعم لا يشعر به إلا هو ثم قال:

– كيف لا أسعد في العمل وفيه من بمثل أخلاقك؟!

أجاب أحمد مصافحًا:

– هذا من ذوقك الرفيع، أنا أحمد .

– تشرفت بك.. أنا وليد .

دفعه أحمد إلى الداخل، وحينها رأى وجهًا مألوفًا لعينيه، وبسمة أنسته وجع قلبه، إنه إبراهيم يخترق تقدمات الموظفين المارة باتجاهٍ عكسيٍّ يتجه نحو وليد .. والذي زاد من إعجاب وليد بـــ إبراهيم احترام وتقدير الموظفين له وتسارعهم لإلقاء التحية عليه بينما يرد عليهم بلا تركيز لأن سعادته بـــ وليد شغلت كل تركيزه، وما أن وصل إلى وليد حتى انحنى على كرسيه واحتضنه قائلًا:

– اليوم يوم عيد يا وليد .

رد وليد بسعادةٍ بلغت ذروتها:

– بارك الله فيك يا سيادة المدير.

– سيادة المدير على أي أحدٍ سواك يا صديقي، ودعك من هذه النبرة، فأنا إبراهيم .. إبراهيم فقط.

– سمعًا وطاعةً يا صديقي.

– هيا بنا لأريك عملك، شكرًا لك يا أحمد .. اذهب وأنا سأتولى أمره.

تقدمهما أحمد منصرفًا للداخل.

قال إبراهيم :

– سنذهب الآن إلى مكتبك يا وليد .

واتجه به نحو مكتبٍ رائع مليء بالإمكانيات الحديثة، كالمكيف والكمبيوتر والأثاث المريح، ارتسمت علامات الدهشة على وجه وليد يكسوها التعجب الممزوج بأعلى درجات الفرح حتى فتح فمه لشدة انبهاره مما أثار ضحكات إبراهيم الساخرة قائلًا:

– أغلِق فمك أيها الطفل المقزز.

انتبه وليد لدهشته وابتسم قائلًا:

– ما شاء الله تبارك الله، هل هذا مكتبي؟!

أجاب إبراهيم بثقة:

– نعم، هل لديك شك؟!

– كفاك مزاحًا يا إبراهيم .

رد إبراهيم ضاحكًا:

– أين المزاح فيما قلته؟! هذا مكتبك وهو قليل على قدرك عندي يا وليد ..ثم قال دعنا من المجاملات الآن، وهيا لنبدأ العمل.

بدأ إبراهيم في تعليم وليد طرق العمل ونظامه وكيفية إنهاء الأوراق، وجدولة المستندات ثم أكد ضرورة إنهاء العمل الأهم ثم المهم، من

خلال جدولة الأولويات التي تسير وفقها الشركة، ونظرًا لذكاء وليد وسرعة بديهته، وعى كل ذلك بسهولة مما زاد إعجاب إبراهيم به ثم مضى إلى عمله.

انشغل وليد بعمله الذي استسهله وأحبه، فهو أكثر راحة من عمله في المطبعة بل وأكثر ربحًا، فسبحان الله! رب ضارةٍ نافعة! وكما قال الله تعالى:"وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم."

وكم من مرةٍ تظن أنه ابتلاك ثم تكتشف أنه نجاك، وكم من مرةٍ تظن أنه يقسو عليك ثم تكتشف أنه رحمك، فالحمد لله الرب الحكيم العليم.

ووسط انشغال وليد بالعمل الموكل به، سمع طرقًا على الباب ومعه صوت يستأذن بالدخول، فأذن له وليد فإذا به أحمد بالابتسامة الرقراقة ذاتها، والتي تسبقه دائمًا، فألقى التحية قائلًا:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أستاذ وليد .

ضحك وليد رادًّا التحية بمثلها ثم قال مستنكرًا:

- أسريعًا جعلتني أستاذ؟!

- من يحتضنه مدير الشركة منذ أول يومٍ يستحق أن نناديه بـ وليد باشا، أو وليد بيه، وليس فقط أستاذ.

تزايدت ضحكات وليد لكلام أحمد ومزاحه ثم قال:

– الناس درجات يا فتى، بل وسيزداد عجبك إذا علمت أنه عرض علي منصب مساعد مدير الشركة إلا أن تواضعي أجبرني على الاعتذار ورفض المنصب مراعاةً للحالة النفسية لأمثالك، وحتى لا تموتوا بغيظكم.

ضحك أحمد قائلًا:

– أستحلفك بالله أن تقبل حتى تصبح لنا واسطة وترفعنا معك للدرجات العلى.

مسح وليد ملامح المزاح واستبدلها بملامح الجدية والاستنكار قائلًا:

– أرفعك معي؟! هل أعرفك يا هذا حتى أرفعك معي؟! اغرب عن وجهي يا ولد.

ضحك أحمد بصوته الجهور مما جعل وليد لا يستطيع أن يسيطر على كبت ضحكاته، فأطلق له العنان وساد جو من الضحك غشاه الود والمحبة ثم ما لبثت أن هدأت أمواج الضحك وتحولت إلى بسماتٍ عطرة كما بدأت ثم قدم أحمد لـ وليد أوراقًا لينهيها، فأخذها وليد ووضعها أمامه ثم قال:

– اجلس، أريد أن أسالك عن شيء.

فجلس أحمد قائلًا:

– خيرًا.

– أخبرني بنظام الشركة، وخفاياها التي لا تظهر للعامة؟ وكيف أتعامل مع الموظفين؟

تنهد أحمد والتقطت يمناه كوب الماء الموضوع على المكتب ثم ارتشف منه جرعات لترطب مجرى الكلام حتى يخرج بسهولةٍ ويسر، فقد سأله وليد عن أمورٍ صعبة ثم وضع الكوب وتنهد قائلًا:

– يا وليد .. أنت الآن واحد منا ويحق لك أن تعرف كل شيء، لكن ما سأقوله لك لابد أن يظل سرًّا، لا يخرج منك لأحد حتى لـ إبراهيم نفسه.

هز وليد رأسه قائلًا:

– أعدك بهذا لا تقلق.

ثم استطرد أحمد قائلًا:

– منذ عامين كانت هذه الشركة من أشهر الشركات وأربحها في مجال الدراجات النارية، وكانت مصانعها يُشهد لها بالكفاءة والقدرة العالية، كنا نعيش أيام رغدٍ وفخر، وكان صاحب الشركة المهندس خالد والد المهندس إبراهيم بشوشًا مبتسمًا سعيدًا بما حققه من إنجازاتٍ ونجاحات، لقد كان كريمًا فياضًا، لا يبخل على أحدٍ بشيءٍ من حوافز وإجازات، والجميع يشهد بذلك، كما كان الموظفون يعملون بجدٍّ واجتهادٍ وروح الفريق، إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان، ولم يكن ليتوقعه أسوء المتشائمين، فقد

فتحت الدولة أبواب الاستيراد للدراجات النارية من الصين واليابان وغيرها من الدول المصنعة وفرضت عليها رسوم جمارك لا تكاد تذكر وفقًا لاتفاقياتٍ وقعتها الدولة في سبيل إنشاء استثمارات لهذه الدول بالداخل، وهذا جعل أسعارهم زهيدة، وزاد الإقبال عليها مما أدى إلى زهد الناس في شراء منتجنا وصدفوا عنه، هذا أدى إلى انهيار الأرباح، وتراجع نسبة المبيعات، مما اضطر الشركة إلى تقليل إنتاج أعداد المنتج، وتسريح العديد من العمال نظرًا للعمالة الزائدة، وتحول المهندس خالد من البشاشة والسرور إلى الانطواء والعزلة الدائمة في مكتبه، ولم نرَ له ابتسامة منذ ذلك الحين، وكل هذا غيّر بالطبع في روح الفريق، فكل موظفٍ يلقي باللوم على الآخر حتى لا يُتهم بالتقصير ويُطرد من الشركة، فأصبحنا كأننا في شركةٍ جاسوسية، الجميع يتصيد الأخطاء حتى يقدم الآخر كبش فداءٍ يفدي به نفسه من الطرد، لذلك ساد الحقد وعمت الضغينة بين الموظفين، وبدلًا من التفكير في حلولٍ لنجاة الشركة، فكر كل واحدٍ في حلولٍ لنجاة نفسه فقط حتى أصبحت الشركة مدينة للبنك بمبلغٍ كبير، ويخشى المهندس خالد أن يسرح بقية الموظفين ويغلق الشركة، فلو علم البنك بذلك لحجر على أمواله وممتلكاته وعقاراته، لذلك يتجرع مرارة الخسارة يوميًّا، ولا يستطيع أن يتكلم أو يتلفظ بكلمةٍ واحدة تهون عليه مرارة الخسارة.

ارتسمت على وجه وليد ملامح الحزن والأسى معبرًا عنها بقوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، أعانهم الله على ما هم فيه.

انتهى المجلس بين وليد و أحمد الذي ترك الأوراق لـ وليد وخرج ليستأنف عمله، وما أن انفرد وليد بنفسه حتى تذكر مقولة ذي الصوت الغليظ:"الشركة تخسر بأصحاب الأرجل، فكيف يوظفون المعاقين؟!"

وكأن هذا القول بمثابة الشرارة التي أوقدت نار وليد ، لكنها ليست نارًا للحقد أو الكراهية، إنها نار الحماسة وإثبات الذات، لذلك قرر أن يكون عضوًا فعالًا وسط جماعة كساها الإحباط واليأس، فهو لن يلعن الظلام، بل سيصلح المصباح، وإن لم يستطع إصلاح المصباح، فسيوقد شمعة، إنها قوة الطاقة البشرية الرهيبة، وقد رنت في أذنه الحكمة القائلة:"البطل هو من يتجاوز القدرة على تطوير ذاته إلى تطوير الآخرين وإخراج قدراتهم والاستفادة بأقصى درجة من مهاراتهم المكبوتة والمغطاة بالتراب."

انتهى اليوم الأول للعمل، وعاد وليد في حدود الرابعة عصراً وقابله والداه بالترحيب والتهليل، سألاه عن أخبار العمل وعن مدى ارتياحه فيه، فمدح العمل والموظفين، وأن معنوياته تعانق الجوزاء ثم تناول غداءه ودخل غرفته وأطفأ الأنوار ممددًا جسده على الفراش ليستريح ثم أغمض عينيه إلا أن الزائر المنتظر لم يأتِ بعد، وظل يتقلب يمنة ويسرة يبحث عن النوم في كل أركان السرير إلا أنه لم يجده، وراودته الأفكار

حول العمل.. كيف سيحدث التطوير في الشركة؟ وما الذي يستطيع أن يقدمه مقعدًا؟! وتذكر أن النجاح أساسه الأفكار، وفي مرحلة تطبيق هذه الأفكار سنجد ألف قدم وقدم، فاتكأ على سريره وأضاء المصباح بجواره، وفتح جهاز الكمبيوتر ثم دخل على الإنترنت وحرك المؤشر على مستطيل البحث، وبحث عن مزايا وعيوب الدراجات النارية المستوردة، فعرض له البحث العديد من النتائج التي تصفحها، واستنتج بعد ثلاث ساعات من الزمن أن هذه الدراجات لها مزايا وعيوب؛ أما المزايا فتكمن في السرعة، وزركشة ألوانها وتنوعها إلى جانب انخفاض ثمنها، ومن ناحية العيوب؛ وجد كثرة أعطالها، ورداءة جودة المنتج، وقطع الغيار الخاصة بها، كما أنه ليس لها أي ضماناتٍ في حال تلفها.

وبعد مرور أسبوع من البحث المتواصل، كتب وليد كل المزايا والعيوب التي توصل إليها وأضاف بعض التعليقات الخاصة به، ووضعها في ملف، كان على أحر من الجمر رغبةً في انتهاء اليوم حتى يأتي الغد ليذهب إلى إبراهيم ويعرض عليه ما توصل إليه ليتيقن أن وليد هو الرجل المناسب في المكان المناسب.

(٩)

أتى الصباح بإشراقه البسّام وعطره الفواح، فذهب وليد إلى العمل، وما أن وصل إلى مكتبه حتى اتصل بـ إبراهيم واستأذنه في الحضور لخبرٍ سار، وما هي إلا دقائق حتى وصل إبراهيم إلى مكتب وليد قائلًا:

- خيرًا يا صبيح الوجه.

أجاب وليد بسعادة:

- كل خيرٍ إن شاء الله يا صديقي، أريد أن تستأذن لي المهندس خالد لنأخذ من وقته نصف ساعة، وستعرف كل شيءٍ هناك.
- وليد .. أخبرني بالأمر، وإن كان يستدعي الذهاب إلى أبي، فسأصطحبك إليه، أبي طبعه ليس كطبعي، وقد تخرج منه كلمات تضايقك يا صديقي، فبالله عليك أخبرني أولًا.

ابتسم وليد ابتسامة ثقةٍ وقال:

– ثق بي يا صديقي، فلقد سمعت عن طباع المهندس خالد وتفهمتها، فلا تقلق.

لان إبراهيم تجاه إصرار وليد وذهب لطلب الإذن من أبيه المهندس خالد الذي يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا، مهندم الملابس، عبوس الوجه، قليل الكلام، كثير الصمت، وقد دخل إليه إبراهيم كي يستأذنه ليسمح بمقابلة أحد موظفيه، وقد أشار إليه أنه عاجز ثم أردف قائلًا:

– وأنا من وظفته لحالته، لكنه كفء جدًّا، وأستحلفك بالله يا أبي، إن قال ما لا يعجبك، فلا تهينه كرامةً لي.

تنهد المهندس خالد بعمقٍ مخلوط بملامح ضجر في طور الرضاعة قائلًا:

– ماذا يريد من مقابلتي؟!

أجاب إبراهيم متوترًا:

– رفض أن يبوح بشيءٍ إلا أمامك لكنه أخبرني أنها أخبار سارة.

– يا له من يومٍ قد بدأ سواده منذ بدايته! دعه يدخل لترتاح، لكن أخبره أن يقتصدً في كلامه، فليس لدي وقت أضيعه مثلك يا إبراهيم وأشفق على الناس، أنا في حاجةٍ لمن يشفق عليّ.

رد إبراهيم سعيدًا:

– حسنًا يا أبي.

وخرج ليحضر وليد وقد نصحه قائلًا:

– وليد .. اقتصد في حديثك؛ فحالة أبي النفسية ليست جيدة.

– لا تقلق، فالله معنا.

تنفس إبراهيم الصعداء، ودخل وليد يدفع وليد داخل مكتب المهندس خالد وقد بادره وليد بالسلام.

رد المهندس خالد التحية، وتقدم ببطء وصافح وليد ـــ غير مكترثًا بما سيقوله ـــ ثم استدار وجلس على كرسيه قائلًا:

– خيرًا ، فيمَ أردت مقابلتي؟

أجاب وليد متحمسًا:

– أردت مقابلة سيادتك بخصوص خسائر الشركة وكيفية تداركها...

لكن المهندس خالد قاطعه واقفًا، ولم يعطه الفرصة ليكمل كلامه، فثار كالبركان، وبدأ يقذف الكلمات التي تشبه الحمم البركانية على وليد مستنكرًا كلامه قائلًا بسخرية:

– خسائر الشركة!!من أخبرك أن الشركة تخسر؟!! ومن أنت حتى تقرر خسائر الشركة؟!! هل أنت مدير مجلس الإدارة؟! هل أنت

المدير المالي؟!! أم أنك رئيس قسم الحسابات؟!! من أنت حتى تقرر وتقول أن الشركة تخسر؟!!

ظل وليد خاشعًا لا يجيب، كأنه هاتف محمول بلا شبكة إرسال، فهو يستقبل الهجوم ولا طاقة له للدفاع عن نفسه.

استطرد المهندس خالد هجماته، وسأل سؤالًا كأنه ضرب وليد بنصل سيف، لا بل إنه كرمية سهمٍ أو ضربة حربة:

– منذ متى تعمل لدينا في الشركة يا أستاذ؟!!

نظر وليد إلى إبراهيم ليستمد منه القوة إلا أن لسان حال إبراهيم يقول: إني أشكو مما منه تشكو.

فاستجمع وليد ذخائر قوته المتبقية وابتلع ريقه ثم قال بأنفاسٍ متقطعة:

– منذ أسبوع.

ضحك المهندس خالد ضحكات هستيرية، لا توحي بخيرٍ ولا بمثقال ذرة وظل يردد:

– منذ أسبوع!!! منذ أسبوع!!!!

ازدادت ضحكاته مردداً: منذ أسبوع!!! تعمل لدينا منذ أسبوع!!!

وفجأة كأنه ضغط على زرٍّ لإيقاف ضحكاته، فتحول الوجه الضاحك الهستيري إلى وجهٍ مزمجرٍ، وعينين جاحظتين، وأنفٍ متورٍم، وأذنٍ كأذن الفيل ثم صرخ ضارباً يده على مكتبه وقال:

– تعمل عندي منذ أسبوع، واليوم تخبرني بأن الشركة تخسر!!

ثم قال بتهكم:

– إذًا سأنتظر سيادتك غدًا حتى تقرر متى سنبيع الشركة، وتأتي بعد غد حتى نتسول سويًا عند المقامات وأهل الأضرحة.

رأى إبراهيم أن الوضع قد خرج عن السيطرة، واتجه نحو أبيه يهدئه قائلًا:

– اهدأ يا أبي، فالرجل لا يقصد هذا.

نظر خالد إلى إبراهيم صارخًا:

– إنه يقول أن الشركة تخسر يا إبراهيم ، هل سمعت هذا، الشركة تخسر، وأنا وأنت أصحاب الشركة ومؤسسيها لا نعرف بهذا، والاستاذ يعمل في الشركة منذ أسبوع فقط ويخبرنا أنها تخسر.

كان الله في عونك يا وليد .. فما أسوأ منظرك أمام صديقك بل وأمام نفسك! أهذا جزاء من يمد يد المساعدة؟!! أهذا جزاء من يقدم على فعل الخير؟!! كل هذا يدور في ذهن وليد والذي أراه في مفترق طرق، فإما أن يلملم ما تبقى من كرامته الممزقة كتمزق شاه انفرد بها ذئب شرس، وإما أن يصمد بما تبقى له من أشباه الكرامة، ويحاول الصمود من أجل توضيح وجهة نظره، وشرح أفكاره التي لم تجد مجالًا لأن تُسمع.

ساد الصمت للحظاتٍ لا يُسمع فيها صوت، و وليد يقرر مع نفسه أي الطريقين سيختار؛ هل سيختار الرحيل لاعنًا معه إيقاظ النائمين والعيش مع القطيع في الظلام؟ أم أنه تقلد المسؤولية أمام نفسه لنجدة هذه الشركة، وبذلك فكل هذا هين في سبيل نجدتها؟ فـ إبراهيم يستحق أن يضحي من أجله حتى وإن كانت التضحية بكرامته.

الصمت مازال مخيمًا إلا صوت صدر المهندس خالد يعلو ويهبط في محاولةٍ لالتقاط أنفاسه من الهواء بعد هذه الثورة، وصوت إبراهيم يربت على كتف أبيه يهمهم له ليهدئه ويطفئ نار غضبه.

أرى وليد مطأطئ الرأس، ذابل الوجه، ساكن الجسد، ووسط هذا المشهد الصعب الحزين إذ برأس وليد ترتفع حتى كادت تعانق السقف، وانتفخ صدره ليس بالهواء إنما بالإصرار على إثبات الذات، وجحظت عيناه كعيني الصقر، فـ وليد في هذه الحالة كمصارعٍ تلقى ضربات سريعة ألقته على الأرض صريعًا، والخصم يدور حوله ليتيقن انتصاره عليه، إلا أن هتاف الجمهور المحب له أشعل من جديد نارًا قد انطفأت، وهذا الجمهور إنما هو الصوت الداخلي لـ وليد الذي شجعه على إثبات الذات ومقاومة الهجمات، فانطلقت أول الكلمات من وليد في هدوءٍ عجيب:

- اعذرني يا سيدي إن خانتني تعبيراتي، فما أقصد قوله، هو أني أعددت برنامجًا لزيادة أرباح الشركة والمعطيات كالآتي؛ نحن في تنافسٍ مع مستوردين للدرجات النارية الذين يبيعون بسعرٍ زهيد

وجودة أقل وإمكانيات أعلى، لذلك ليس من العيب أن نقتبس من هذه الدراجات إمكانياتها العالية، ونزودها لدراجاتنا، وبذلك نحدث طفرة في دراجاتنا، هذا أولًا، أما ثانيًا: فنحن على ثقةٍ ويقينٍ من كفاءة منتجنا وصلابته وقدرته، فلماذا لا نجعل الضمان لمدة عامٍ على كل دراجة بخارية؟! فهذا سيعطي العميل ثقة أكبر بمنتجنا ويزيد من الإقبال عليه، وبذلك نكون قد ربحنا ميزة الضمان وبلا جهد زائد أو إضافة في المنتج الذي اعتدنا صناعته بجودةٍ وإتقان.

طربت آذان المهندس خالد و إبراهيم فجلس خالد على كرسيه، وظلا منتبهين إلى وليد كأن على رأسيهما الطير، واستطرد وليد قائلًا:

– وكذلك الإمكانيات التكنولوجية الحديثة مثل مشغل MP3 والذي يمكن أن نوصله بالدائرة الكهربائية وعند تشغيل الدراجة نضيف دعاء الركوب سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون أو أي جملة يختارها العميل، يتم برمجتها على الدراجة، فهذه الكماليات من شأنها أن ترفع من قدر المنتج وقيمته، بالرغم من أنها لا تكلفنا إلا القليل، ويجب أن نضع في اعتبارنا عنصر السرعة في منتجنا، فهي ميزة العصر، لذلك لابد من التركيز على تطوير المحرك ليعطينا سرعة أكبر.. أما ثالثًا: لماذا نحصر منتجنا في لونين أو ثلاثة؟ لماذا لا نراعي اختلاف الأذواق، وطفرة العلم في مجال الألوان ونجعل لمنتجنا خمسة أو

ستة ألوان، أو نجعل منها ألوانًا متداخلة حيث يكون المستهلك أمام خيارات متعددة وواسعة تغنيه عن اللجوء لمن سوانا؟!

زادت ثقة وليد بنفسه، وقد استمدها من نظرات المهندس خالد ونظرات إبراهيم الذي لم يتصور أو يتوقع أبدًا أن يخرج كل هذا من وليد وأن أباه المهندس خالد يجلس في صمتٍ عميق منتبهًا إلى وليد كأنه التلميذ الذي يتلقى العلم من معلمه الأسطوري، واستمد وليد ثقته أيضًا من سعة اطلاعه وكثرة قراءته وعمق معرفته وشمولية دراسته للموضوع، كل هذا كان له الأثر الفعال على وليد .

هَمّ المهندس خالد والسعادة تكسو محياه للحديث، فقاطعه وليد بملامح الجدية قائلًا:

- انتظر رجاءً، فأنا لم أنتهِ بعد.

شعر المهندس خالد أن وليد في طريقه لاسترداد كرامته التي أهينت، وثقته التي اهتزت، فلبى أمر وليد المهذب وصمت.. استكمل وليد كلامه بالثقة والثبات نفسه قائلًا:

- إذا كانت الشركة بهذا الاتساع إلى جانب الأرض المحيطة بها، وهي كذلك ملك للشركة، فلماذا لا نبني جزءًا منها كمعرض ونبيع فيه المنتج للمستهلك مباشرةً؟ لماذا نقتصر على البيع بالجملة فقط؟ جميعنا يعلم أن البيع المباشر للمستهلك أيسر وأربح، وهذا لا يكلفنا شيئًا إلا بناء معرض يتسع إلى عشرين أو

ثلاثين دراجة، وموظف من موظفي الشركة، وما أكثر الموظفين!فالفكرة ستحقق ربحًا أكثر.. أما خامسًا: فيمكن أن نستفيد من المعرض ونبيع فيه قطع الغيار الأصلية للمنتج بدلًا من لجوء المستهلك إلى قطع الغيار المقلدة والأقل جودة، فإذا فتحنا هذا الفرع لقطع الغيار، ربحنا أكثر، وزادت ثقة المستهلك بمنتجنا، وبتوفر قطع الغيار الأصلية.

صمت وليد ومد يده نحو كأس الماء ثم تنفس بعمقٍ شديد وزفر زفرةً أخرجت كل شعورٍ سيئٍ شعر به من قبل لينقي صدره بأنفاس الثقة ثم شرب من الكأس ووضعها، والمهندس خالد و إبراهيم في سكونٍ بلا كلام يراقبان وليد يريدان أن يهللا ويصيحا ويصفقا إلا أنهما لم تصلهما إشارة من القائد بأنه قد أنهى حديثه، لذا فلا يجرؤ أحدٌ على الكلام، لا بل لا يجرؤ أحد على الهمس والمقاطعة، واكتفيا بما رسمته وجوههما من سعادةٍ وفرحة بأفكارٍ سوف تنقل الشركة من سابع أرض إلى عنان السماء.

وضع وليد كأس الماء بينما ما زالت عيناه عليها ثم رفعهما ببطءٍ نحو المهندس خالد قائلًا:

– أسمعت يا سيدي عن ميزة التخفيضات التي تطرحها الشركات؟

أجاب المهندس خالد بحماس:

– نعم.. نعم.

- نحن أيضًا سنستخدم هذه الميزة للترويج لمنتجنا لكن لن نعطيها بدون مقابل بل سنجعلها مقرونة بشرط.

تعجب المهندس خالد قائلًا:

- كيف ذلك؟! لا أفهم!

- سأشرح لك، إذا وضعنا تخفيضات بشكلٍ مطلق وغير مقيدة بشرط، فإننا سنربح، لكن ستكون أرباحنا أقل بينما إن قيّدنا التخفيضات بشرطٍ يكون في صالح الشركة، ستبلغ الأرباح عنان السماء، وهذا الشرط كالآتي؛ إن اشترى المستهلك دراجة سيحصل على تخفيض، ولكن إن اشترى دراجة ونجح في إقناع غيره بشراء دراجة من منتجنا، يحصل بذلك على تخفيضات تصل إلى عشرة بالمائة من قيمة المنتج، وبذلك يكون قد استفاد المستهلك بتخفيض ثمن المنتج، واستفدنا نحن بعميلٍ ومستهلكٍ جديد.

قفز المهندس خالد من كرسيه واحتضن وليد ثم أخذ يقبّل رأسه ويصيح:

- أنا أعتذر على سوء معاملتي لك وسوء ظني بك، اعذرني بالله عليك.

أبعد وليد المهندس خالد برفقٍ بينما يجد في فعلته هذه خير انتصار لكرامته، وخير اعتذارٍ يحصل عليه، فقال:

- لا عليك، لكن رجاءً لا تسيء الظن بأحدٍ بعد ذلك، واستمع لمن يأتيك حتى ينتهي.
- سأفعل أيها العبقري، أعتذر منك، فلتقبل اعتذاري.

تحدث إبراهيم منبهرًا:

- وليد حقًّا إنك لعبقري، وما توقعت هذا منك، كما أني لم أتوقع أن يكون لمشكلتنا كل هذه الحلول ونحن نعجز عن إيجاد حلٍّ واحدٍ لها.
- أنتم لم تجدوا حلًّا لأنكم يئستم، واستسلمتم للخسارة ولم تحاولوا كثيرًا، لكن من يحسن الظن بالله، ويجتهد يوفقه الله يا إبراهيم .
- ما أجمل كلامك يا صديقي!

تحدث المهندس خالد متحمسًا:

- اسمع يا وليد .. أنت الآن عضوٌ في مجلس إدارة الشركة.

رد وليد متهكما:

- عضو في مجلس الإدارة؟! أنسيت أنكم وظفتموني منذ اسبوع؟!!
- كفاك تأنيبًا يا فتى، ودعك من هذا الكلام، سيجتمع المجلس بعد نصف ساعة لدراسة إمكانية تطبيق الحلول تطبيقًا عمليًّا وتحويلها

إلى واقع، ورسم خطط الشركة المستقبلية لتفادي الخسائر، وجني الأرباح.

ثم اتجه ليجلس على كرسي مكتبه رافعًا سماعة الهاتف صارخًا فيها:

- اجتماع مجلس الإدارة بعد نصف ساعة، ومن سيتخلف سأطرده خارج الشركة.

ضحك إبراهيم و وليد من لهجة المهندس خالد وتأكدا من تحسن حالته المزاجية وجريان التفاؤل في أوصاله، ولما تعالت ضحكاتهما صاح قائلًا:

- أما زلتما هنا؟! هيا.. هيا، اخرجا إلى مكتبيكما، فالخير قادم بإذن الله.

دفع إبراهيم وليد وخرجا في سعادةٍ غامرة؛ فالسفينة التي شارفت على الغرق، أنقذها الربان الجديد.

عندما اختلى وليد بنفسه في مكتبه، اقترب بكرسيه إلى المكتب وخر برأسه ساجدًا عليه سجدة شكرٍ، حامدًا الله على نعمه وفضله، وشاكره على توفيقه، سالت دموع الفرح من عينيه، وقد تيقن أن ذلك الحادث لم يكن نهاية الطريق، بل كان مفترق طرق أخذه إلى مكانٍ أفضل برزت فيه قدراته ومواهبه، وأصبح إنسانًا فعالًا ناجحًا ذا أثر إيجابي، رفع رأسه من على مكتبه وبدأ يرتب أوراقه من جديد استعدادًا لعرضها على مجلس الإدارة ليكون مستعدًّا للرد على أي استفسارات.

(١٠)

سريعًا يمر الوقت، وتم استدعاء وليد للاجتماع، فاتجه نحو غرفة الاجتماعات يدفع كرسيه بيده، ووجد الجميع قد حضروا، وفي منتصف الطاولة المهندس خالد وعلى يمينه إبراهيم الذي حيا صديقه بابتسامةٍ محفزة، وهلل المهندس خالد قائلًا:

- مرحبًا بك أيها العبقري.. تفضل.. تفضل.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

انقسم المجلس في رد التحية من حيث الطريقة، فمنهم من اهتم ورد بحماس، ومنهم من سمع بأفكار وليد وخططه ولم يقتنع بها، لذلك كان رده للتحية يتخلله ابتسامة سخرية، ومنهم من كان غافلًا عن الأخبار ولم يدرِ سبب الاجتماع الطارئ، فرد التحية بطريقةٍ عادية جدًّا، فهم وليد كل ذلك وتقدم نحو منتصف الطاولة بثقةٍ وثبات.

دار الحديث، وبدأت المناقشات والمشاورات، وعدّد وليد خطط نجاة الشركة ونجاحها، وعزز ما يقوله بـ فلاشه محملٌ عليها مقاطع فيديو،

وصور تدعم أفكاره، وعرضها على الشاشة أمام المجلس، وعندما انتهى من عرضه فتح باب الأسئلة والاستفسارات.

قال المهندس مجدي ذو الخمسة والأربعين:

– أنت رائع وأفكارك مثلك رائعة، أنا أؤيدك تمامًا.

وصاح متعجبًا:

– كيف غابت عنّا كل هذه الأفكار؟!!

نظر المهندس طارق ــ وهو في الاربعين من عمره ــ بتهكم إلى المهندس مجدي قائلًا:

– كفاك مدحًا يا مجدي وانظر إلى الأمور بواقعية وعقلانية.

سأل وليد :

– ماذا تقصد؟ أخبرني بوجهة نظرك.

أجاب طارق بتهكم قائلًا:

– أتعتقد أنك الذكي العبقري، ونحن الأغبياء الحمقى؟! أتعتقد أنك منقذنا الأسطوري من الخسائر والديون؟! انظر لنفسك، فأنت مازلت مراهقًا تحلم بالقيادة.

قاطعه وليد قائلًا:

– يبدو أن المهندس طارق قد حلل شخصيتي جيدًا وفهمها بعمق، لكن دعني أخبرك أن المجلس في زهدٍ عن سماع هذا التحليل، فهو

لا يعنيهم في شيءٍ، لذلك ركز في إبداء رأيك في البرنامج التطويري، وليس في شخصيتي، وبعد الاجتماع أعدك أني سأحضر لمكتبك حتى أسمع منك باقي التحليل الرائع هذا.

قفز المهندس طارق من كرسيه وكأن عقربًا لدغه للتو أو صُعق بتيارٍ كهربائيٍّ شديد، ولا أخفيكم سرًّا، إن رد وليد عليه قد قصف جبهته، وهتك غروره، وحقيقةً فهو يستحق.

صاح المهندس طارق قائلًا:

– أنت إنسان غير مهذب.

رد وليد بغضب:

– لن أرد عليك، وأعتقد أن صمتي هو الرد المناسب.

صاح المهندس خالد قائلًا:

– كفاكما هراءً، ولنركز على ما أتينا لأجله، وأنت يا طارق فليكن رأيك في البرنامج بالإيجاب أو السلب، وليس لك شأن بـ وليد ولا بشخصه.

خابت ظنون طارق الذي ظن أن المهندس خالد سيكون في صفه وينحاز له ضد وليد ذلك الوافد الجديد، لذا هدأت نبرته، وسكنت انفعالاته، وخمدت ثوراته، وجلس على كرسيه قائلًا في سكون:

– لقد فكرت في كل هذه الأفكار من قبل، ووجدت أنها لا تجدي نفعًا، فما أردت أن أضيع وقتكم في عرضِها منذ البداية.

واستطرد قوله ناظرًا إلى وليد :

– أنت تريد أن تطور من سرعة المحرك، وهذا يحتاج إلى ماكينات جديدة، ونظم متطورة، وهذا أيضًا يحتاج إلى مهندسين وفنيين جدد للتعامل معها، مما سيكلف الشركة المبالغ الطائلة التي لا تقوى الشركة على دفعها، كما أنك تريد تزويدها بمشغل mp3 وبرمجة وما إلى ذلك، وهذا كله يحتاج إلى تكنولوجيا جديدة غير متوفرة بالمرة في مصانعنا، وقد يترتب على هذا ربح ضئيل جدًّا مقارنةً بمتطلباتها ومعداتها المطلوبة، وبذلك نكون قد عرضنا الشركة لخسائر أكبر من نسبة الأرباح التي ستحققها.

ناقش وليد بثقةٍ وقوةٍ قائلًا:

– هل قمت بدراسة جدوى لهذه الأفكار أم أن رأيك هذا قائم على مجرد فروض وتوقعات؟

أجاب طارق متلعثمًا بارتباك:

– على فروض من خلال خبرتي الطويلة في هذا المجال.

رد وليد بثقةٍ تتزايد:

– هذا الملف يحتوي على أسعار الماكينات وأنواعها، وأسماء الشركات، والعروض التي تقدمها، وكذلك عروض الشراكة التي

تقدمها للشركات الأخرى، كما أن بعض هذه الشركات يقدم عروضًا رائعة تتمثل في تقديم دورات للمهندسين والفنيين لكيفية التعامل مع الآلات والماكينات، وطرق عملها وصيانتها، وكل ما سيتطلبه الأمر هو إرسال الشركة مندوبها لعقد الصفقات معهم، ومن ثم نرسل بدورنا المهندسين والفنيين لتلقي الدورات والتي لا تزيد عن الشهر، وبذلك تكون فروضك خطأ، وأدت إلى خسائر فادحة للشركة.

كانت كلمات وليد كالقصف الجوي على المهندس طارق الذي تصبب عرقًا، ونظر إليه الجميع نظرة لم يتصور يومًا أن تُنظر إليه، ولم يكن له سلاح يواجه به إلا الصمت الذي لن يكلفه مزيدًا من الخزي والمهانة.

نظر وليد إلى الجميع قائلًا:

- هل من استفساراتٍ أخرى؟

رد المهندس عادل قائلًا:

- أفكارك ممتازة، وإن شاء الله سيكون لها الناتج الإيجابي، لكن لدي ملحوظة صغيرة بخصوص المعرض الذي سننشئه بجوار الشركة.

تحدث وليد مُرحِبًا:

- تفضل اعرضها.

- إن الشركة بعيدة عن المنطقة السكنية، لذلك سيكون من الصعب والمكلف على المستهلك أن يأتي إلى هنا، وخصوصًا أن المواصلات العامة لا تصل إلى هنا، لذلك أقترح أن نستأجر معرضًا في مكانٍ داخل المناطق السكنية المزدحمة حيث يكون قريبًا من الناس، ويكون فرصة جيدة لعرض منتجاتنا، ونشر مزاياها بصورةٍ أكبر بين الناس، وإن نجحت الفكرة نفتتح أكثر من معرض في أكثر من منطقة، وبذلك تزيد المبيعات ويتبعها زيادة نسبة الأرباح.

أعجب وليد بالفكرة قائلًا:

- فكرة رائعة، أنت على صواب.

لم يتكبر وليد أو يغضب من تعديل فكرته، ولم يشعر بالنقص، بل تقبل التعديل، وأشاد به وأيده، ومن شيم القادة، عدم الانحياز لفكرته إن اكتشف فيها خطأً أو نقصًا.

رحب كذلك أعضاء المجلس بالفكرة، وهنا قال المهندس خالد سعيدًا:

- أنا أؤيد كل هذا، لكن يوجد عائق لدينا.

رد وليد قائلًا:

- وما هو؟

- إن بناء المعرض وإرسال البعثات يحتاج إلى سيولة، ونحن لا نملكها تقريبًا، وما نجنيه بالكاد يكفي لسداد رواتب الموظفين الذين يشكل جزءٌ كبير منهم عمالة زائدة تلتهم أشباه الأرباح.
- نحن في مرحلةٍ انتقالية صعبة، والجميع يعرف ذلك، وإن لم ننفذ هذه الأفكار ستنهار الشركة قريبًا، وأنتم تعرفون هذا، لكنكم تخافون من مواجهة الحقيقة، لكن اعلموا أنكم إن لم تستفيقوا من سباتكم العميق، فالنهاية الحتمية ستأتي لا محالة حتى وإن تأخرت قليلًا، هناك حل لمشكلة السيولة، لكنه حل صعب لا أخفي عليكم، ولكن أيضـًا صعوبته مؤقتة.

تحدث المهندس خالد بخوفٍ قائلًا:

- وما هو؟

أجاب وليد بحماس:

- سنقوم ببعض الإجراءات التقشفية لمدة ستة شهور، وذلك من خلال تقليل الرواتب بنسبة الربع على جميع فئات الشركة وموظفيها من أصغر فئة لأكبرها، وأنت أولنا يا سيادة المدير، وبذلك سنستطيع جمع سيولة ليست هينة ستساعدنا خلال الستة شهور من إرسال البعثات وبناء المعرض وتجهيزه، وتكون أولى خطوات بناء المجد من جديد.

قال المهندس طارق بتهكم:

- ومن سيقبل بهذه الفكرة العقيمة؟! العمال يطالبون بزيادة الرواتب منذ أكثر من سنة ونحن نماطل، والآن أنت تقترح أن نخصم الربع؟! أي عقلٍ هذا؟! ومن الذي سيقبل بهذا القرار؟!!

نظر وليد إلى خالد فوجده منحازًا لرأي طارق فلن يرضى أحد الموظفين بهذه الإجراءات التقشفية.

تحدث وليد بقوة:

- نحن على حافة الهاوية، لذلك لابد أن تكون قراراتنا حاسمة، فمن يتقبلها سيظل معنا، ومن يرفضها ولا يقدم لنا يد العون، فلسنا بحاجةٍ إليه.

قال طارق مستنكرًا:

- ماذا تقصد؟!!

- أقصد أنه من سيقبل ويرضى ويتحمل، سنعوضه بإذن الله بعد هذه الفترة الحرجة، وسنزيد الرواتب بنسبة تفوق توقعاته، لكن من لا يقبل بها سنعطيه مكافأة نهاية الخدمة، ونقول له: بارك الله فيك وسعدنا بعملك معنا.

فُتحت الأفواه لجرأة وليد وحسمه الشديد، والذي يبدو أنه الغائب عن هذه الشركة، الأمر الذي أدى إلى كل هذه الخسائر الفادحة، والآن رُفعت الأيدي بالتأييد والموافقة على ما تم أثناء الاجتماع، إلا أنه بقيت خطوة أخيرة، ألا وهي؛ من سيخبر الموظفين بهذا القرار الصعب؟!

هذا ما سأله وليد ولم يجب عليه أحد، نظر كلٌّ منهم إلى الآخر ثم اجتمعوا في النهاية على أن إبراهيم هو من سيخبر الموظفين، وذلك لحبهم الشديد واحترامهم وتقديرهم له، ورُفِعت جميع الأيدي تؤيده إلا وليد كان مطأطئ الرأس كأنه يقلب فكرة في عقله.

ولما رآه المهندس طارق لا يرفع يده قال ساخرًا متهكمًا من وليد :

– أتريد أن تخبرهم أنت؟!!

رفع وليد رأسه، ونظر إليه قائلًا:

– لا، لست أنا، لا تقلق.

ثم قال المهندس خالد :

– انتهى الاجتماع، فليذهب كلٌّ منكم إلى مكتبه.

خرج الجميع وانصرفوا، واقترب إبراهيم من وليد ليدفعه، فقال له: تمهل.

ثم نادى على المهندس خالد الذي لبى سريعًا قائلًا:

– خيرًا يا وليد ، ماذا هناك؟

– ماذا لو رفض الموظفون جميعًا إجراءات التقشف؟

بُهت وجه المهندس خالد ثم قال:

– لماذا تخيفني الآن؟!

– لا أخيفك، لكنه احتمال قائم.

جلس المهندس خالد على الكرسي حزينًا كأنه يرى جبال تفاؤله تتحول إلى رمال.

استطرد وليد حديثه قائلًا:

– ماذا لو كان لدي حل سحري سيجعل الموظفين يوافقون وهم سعداء بهذه الإجراءات؟

سأل المهندس خالد بلهفة الغريق الذي يتعلق بقشة:

– وما هو؟!

(11)

استطرد وليد حديثه قائلًا:

- ماذا لو كان لدي حل سحري سيجعل الموظفين يوافقون وهم سعداء بهذه الإجراءات؟

سأل المهندس خالد بلهفة الغريق الذي يتعلق بقشة:

- وما هو؟!
- من الذي اختاروه ليخبر الموظفين؟
- هذا ليس وقت ألغاز يا وليد .. فأنت تعرف.
- أريد أن أسمعها منك.
- إبراهيم .

رد وليد بهدوء:

– لا، بل أنت.

قال المهندس خالد متعجبًا مندهشًا:

– أنا!!!!!!

وكذلك تفاجأ إبراهيم من اختيار وليد للمهندس خالد فهو أبعد ما يكون عن القرار السليم؛ ذلك لأن المهندس خالد قد انقطع عن الموظفين والتعامل معهم منذ فترةٍ طويلة جدًّا، وهذا ما قاله إبراهيم إلا أن وليد رد قائلًا:

– إن الانقطاع الطويل إنما هو ميزةٌ كبيرةٌ جدًّا، تؤهل المهندس خالد للتقدم إليهم وإخبارهم، فبمجرد سماع الموظفين اسمه بعد هذه الفترة الطويلة سيجعلهم يوقنون أن حدثًا جديدًا، ومفاجأةً كبرى ستتم، وهذا ما سيؤهلهم لقبول البرنامج التقشفي.

ساد الصمت من جديد بينما يشعر المهندس خالد بالتوتر والارتباك، فالقرار بالفعل مصيري، فإذا فشل في إقناع الموظفين بالإجراءات التقشفية قد يخسرهم جميعًا، ويطالبون بالرحيل، ورحيلهم ليس فقط سيؤدي إلى إغلاق الشركة، بل سيلحق بها تعويضات فادحة، لا تقوى الشركة على دفعها لتسريحهم جميعًا، لكن إن نجح فستكون العواقب محمودة، وتسير السفينة من جديد بسرعةٍ وثباتٍ كما كانت في أيامها الخوالي.

نظر وليد إلى المهندس خالد ووجهه المضطرب، وفهم أن هذا كله يدور في مخيلته، فقال بهدوء:

- أعلم أن المواجهة صعبة لكنها حتمية، وأعلم أنك قد انقطعت عن الموظفين منذ زمنٍ بعيد، لكن حان الآن موعد ظهورك المتألق من جديد، لا تنسَ أنك القائد، وحامل راية النجاح، والتي إن سقطت من يدك، فلن يستطيع أحد غيرك رفعها من جديد.

نظر المهندس خالد إلى وليد بضعفٍ سائلًا:

- وماذا لو فشلت؟

أجاب وليد بثقةٍ وهو يدور حوله بكرسيه المتحرك وقال:

- من حافظ على هذه الشركة طوال فترة أزمتها لا يعرف الفشل، من يمتلك عقلية كعقليتك لا يعرف الفشل.

ثم نظر في عينيه يخاطب روحه قائلًا:

- أنت لا تعرف الفشل، نعم قد تتعثر، قد تبطئ، لكنك لا تفشل، ولن تفشل.

كانت هذه الكلمات المحفزة من وليد بمثابة الدفعة التي ندفعها لسيارة غير قادرة على التحرك بمفردها، وما أن نعطيها دفعة واحدة حتى يعلو صوتها وتعلن بقوةٍ وثباتٍ قدرتها على الإنطلاق، إن الطاقة الإيجابية الكامنة في أعماق المهندس خالد قد تفجرت ولمع بريقها الذي غاب

طويلًا عن الساحة، فها هو يبتسم، ويحتضن وليد بشدةٍ وقوة ويربت بيده على كتفه قائلًا:

– حقًّا أنت عبقري.

رد وليد مازحًا متهكمًا:

– عبقري!!! أسمعت يا إبراهيم ؟! الآن أنا عبقري! ومنذ ساعتين كان يصرخ بوجهي وكأني كلبٌ شريد.

ضحك إبراهيم والمهندس خالد ثم قال الأخير:

– كن طيب القلب، وسامحني أيها العبقري.

– سأسامحك، لكن عندما نتسول سويًا عند الأضرحة وأهل القبور.

ضحك المهندس خالد و وليد حتى القهقهة، لقد نجح وليد في تهدئة التوتر والقلق النابع من المهندس خالد وفصله عن اضطرابه، والآن لما هدأت الأوضاع، قال وليد :

– هيا بنا يا إبراهيم .. لنترك سيادة المدير يستعد ويعد نفسه للقاء.

دفع إبراهيم وليد خارجين من قاعة الاجتماعات، وقد سمعا المهندس خالد يطلب من السكرتير استدعاء جميع المهندسين والموظفين في غضون عشر دقائق داخل الصالة الكبيرة، ذهب المهندس خالد إلى مكتبه، ومنه إلى حمّامه الخاص قاصدًا حوض المياه، فغسل ملامح الإرهاق العالقة بوجهه بالماء، وأعاد أناقته من جديد ثم سحب بعض

ورقات المناديل المعطرة، وظل يمسح وجهه ناظرًا إلى المرآة متأملًا ملامحه التي غيرتها كثرة الهموم وشوهها القلق، فأغمض عينيه محاولًا استرجاع ملامحه السابقة المليئة بالحيوية والتفاؤل، والتي يكسوها تاج النجاح، وما أن فتح عينيه حتى حدق بالمرآة مرة أخرى قائلًا:

- الحكمة تقول أن القمة يسكنها الأفضل، فاستعدي أيتها القمة وتزيني، فأنا قادم.

ثم استدار وخرج مسرعًا نحو صالة الاجتماعات الكبرى، وملامح التفاؤل تكسوه.

نحن الآن داخل الصالة الكبرى، والجميع قد لبى النداء وحضر، الضوضاء يعلو صوتها على صوت الجميع الذي يتناجى حول الأنباء السيئة التي تسربت بخصوص خصم ربع الراتب وطرد بعض الموظفين، الحزن قد غطى الوجوه، والغضب يسيطر على البعض، وعنقاء الطرد تحوم حول تفكير البعض، يا له من جمعٍ غاضبٍ وشارد!

ويشق غمام الضوضاء، صوتٌ ألقى التحية في المايكرفون خلف الستار قائلًا:

- السلام عليكم.

فرد الجميع التحية، لكن من صاحب هذا الصوت؟ فـ إبراهيم معنا في الصالة، وهو المتعارف عليه في هذه الاجتماعات العامة، أنه المتحدث الرسمي باسم الشركة، لكن صاحب الصوت لم يعطِ فرصة للتساؤلات

أن تكثر، أو يزيد الغموض بين هذا التجمع، فتقدم بخطًى ثابتةٍ نحو المنصة حاملًا الميكرفون في يده.. "إنه المهندس خالد" خرجت هذه الكلمات من جميع الحضور في دهشةٍ وتعجبٍ، وقفز الجميع وقوفًا احترامًا له وتقديرًا ثم بدأوا في التصفيق بحرارةٍ شديدة، وصاحوا مرحبين بأعلى صوت، لقد غمرتهم سعادة أنستهم كل هم، لقد ذكرتهم رؤيته بأيامهم الخوالي، أيام عزهم ومجدهم، تلك الأيام التي كان المتحدث الرسمي لهذه الشركة، هو صاحبها المهندس خالد وفي كل لقاءٍ كهذا، كان يعلن عن نبأٍ سار؛ إما زيادة رواتب أو ترقيات أو بعثات، يا لها من أيام! كل هذا تذكروه، وكل هذا زاد من حرارة التصفيق وشوق اللقاء، وسعادة المهندس خالد لا تقل ولو بمثقال ذرة عن سعادتهم، حقًّا إنه مشهدٌ رائعٌ! ومع استقبالٍ حافل يكاد لا ينتهي، يطلب منهم المهندس خالد الجلوس شاكرًا لهم حسن استقبالهم وعظيم حفاوتهم، فجلس الجميع وبدأت الصالة تستجمع هدوءها رويدًا رويدًا حتى ساد الصمت.

تحدث المهندس خالد قائلًا:

- من نعم الله التي أنعم عليّ بها في هذه الشركة، أنتم، فلولاكم ما نَمَت هذه الشركة وما تألقت، أنتم عمادها، وأنتم بُناتها، عشنا سويًّا أيام رغدٍ وعز، والجميع يشهد بذلك، وأريد أن أسألكم جميعًا بضعة أسئلة، لكن رجاءً يكون الرد بنعم أو لا فقط، اتفقنا؟

أجابوا بصوتٍ واحدٍ:

– اتفقنا.

سأل المهندس خالد بصوت الأب الحنون:

– هل أسأت إلى أحدكم ذات مرة؟

قالوا بصوت واحد جلجل الصالة الكبيرة.... لا

ولسان حالهم يزيد ويقول: والله ما رأينا منك إلا كل خيرٍ.

– ثم سأل هل قصرت يومًا في مساعدة أحدكم وكان باستطاعتي مساعدته؟

– فأجابوا بنفس النبرة القوية ...لا

ولسان حالهم يقول:إن الخدمات والمساعدات ما كانت تُقضى بإذن الله إلا على يديك.

– فسأل بصوت رقيق عذب هل تكبّرت يومًا على أحد، وشعر أنه يعمل عندي وليس معي؟

– فصاح الكل بقوة كبيرة لا.

ولسان حالهم يقول: والله كنا نشعر أنك موظف مثلنا، ونفخر بالعمل معك.

ثم صمت وزاد صمته وهو منكس الرأس للحظات أمام الجميع ثم رفع رأسه بحزنٍ قائلًا:

– اليوم أمرُّ بأزمةٍ كبيرة وأرغب أن تساعدوني، فهل ستفعلون؟!

أشعلت كلماته الحماسية الأولى كل فضيلةٍ تجاه هذا الرجل، زاد حماسهم واشتعلت مشاعرهم أكثر وأكثر عندما رأوه مطأطئ الرأس يطلب يد العون منهم، فما تخلفت منهم يد، فقفز الجميع واقفين وصاحوا بأعلى صوت: نحن معك، نحن معك، نحن معك، نحن معك.

فأصبحت عبارة "نحن معك" كأنها أغنية يرددها الجميع في نفسٍ واحدٍ، إنها صوت دوى في الأرجاء، وهزت قوته كل ساكن.."نحن معك".. ظل الوضع هكذا لمدةٍ طويلة، ونشوة السعادة تزين محيا المهندس خالد وبالمثل تكسو ملامح إبراهيم و وليد اللذين تراهما يصيحان مع الجميع قائلين:"نحن معك."

شكرهم المهندس خالد قائلًا:

- هذا هو المتوقع من شرفاء أمثالكم.

ثم استأذنهم بالجلوس، فجلسوا، وما أن سكنوا حتى استطرد قائلًا:

- جميعكم تعرفون أن الشركة تخسر في الآونة الأخيرة، وهذا بالطبع لا يرضيكم، نحن مدينون للبنك بمبالغ كبيرة، وإن لم نسددها سيحجز على هذه الشركة التي تفتح بيوتنا جميعًا، ونأكل منها لقمة العيش الحلال، الشركة تعاني من العِمالة الزائدة، وقد عرضوا عليّ أن أتخلى عن جزءٍ كبير منكم لكني رفضت بكل حزمٍ وقوة،

وأخبرتهم أنكم من رفع اسم الشركة لعنان السماء ولن أتخلى عنكم أبدًا.

صفق الجميع بحفاوةٍ وسعادةٍ، وزادت ثقتهم بأنفسهم وشعروا بقيمتهم، واستكمل المهندس خالد حديثه قائلًا:

- لقد تبنت الشركة أفكارًا وخططًا جديدة، ستجعلها في الصدارة كما كانت من قبل، لكني لا أستطيع أن أنفذها إلا معكم، سنمر بفترةٍ انتقالية تحدد فيها الشركة كيانها، وقد أخبروني أن هذه الفترة ستكون صعبة، فصرخت في آذانهم وقلت لهم: "إن في ظهري رجال، وأنا على يقينٍ أنهم لن يتخلوا عني أبداً، ولن يخذلوني بل وسيتحملون كل الصعاب."

وكما قلتها سابقًا، أقولها من جديد:"أنتم شركاء النجاح، وكذلك شركاء الصعاب" ويؤسفني أن أقول أننا سنضطر إلى خفض الرواتب بنسبة الربع.

ثم رفع صوته قائلًا:

- وذلك لمدة ستة شهورٍ فقط، فالإدارة أرادت أن تجعل الإجراءات التقشفية لمدة عام، لكني رفضت بكل حزمٍ من أجلكم وأجل مصالحكم، واخترت الحل الوسط الذي سيعين الشركة ويعينكم معها، ستة شهورٍ فقط وسأعيد رواتبكم كما كانت، لا بل أفضل مما كانت.

وترتفع نبرة صوته:

– ستة شهورٍ فقط، وسنعيد لشركتنا الصدارة كما كانت لها من قبل.

ويزداد صوته قوة:

– ستة شهورٍ عجاف حتى نرى بعدها السنين السمان.

ثم صاح بعزم القائد الذي سيخوض معركة ضارية بجنوده الأقوياء:

– هل أنتم معي؟

فزادوا على صياحه صياحًا:

– نحن معك.

وكررها:

– هل أنتم معي؟

والجميع يردد:

– نحن معك، نحن معك، نحن معك.

ثم قال: وهذا ظني بكم، والآن هيا إلى العمل يا أبطال، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وانصرف الجميع.

(١٢)

ذهب إبراهيم و وليد إلى مكتب المهندس خالد بينما كانا في أعلى درجات السعادة والفرح، وتلقاهما خالد بالقبلات والأحضان، فقال وليد :

- ما أروعك! ما أجملك! يا لك من رجلٍ تجيد الكلام! لقد اقتنعوا جميعًا من خلال أسلوبك المتناهي في الروعة والأبداع.
- الفضل لله سبحانه وتعالى ثم لتحفيزك أيها العبقري؛ فقد استطعت أن تثير حماسي وتُبرز مهاراتي.
- كل هذا لا يضاهي روعة انتقائك لكلماتك، وحسن تنسيقك للعبارات، وحسن استخدامك للمشاعر.

- هذا من فضل الله علينا وتوفيقه، والآن اسمعا، أنتما ذراعاي اليمنى واليسرى، ولا غنى لي عنكما الآن، لذا ستكونان من أكثر الناس جهدًا وتعبًا، بل وسهرًا في الفترة القادمة.

رد إبراهيم مازحًا:

- أسمعت يا وليد ؟! لقد جعلك ذراعه اليمنى، سبحان مغير الأحوال!

تحدث المهندس خالد قائلًا:

- اصمت يا ولد، فمن يعرف وليد ولا يحبه؟!

رد وليد قائلًا:

- بارك الله فيك، هذا من طيب أخلاقك.

- والآن سأذهب لإعطاء الأوامر بالخطط الجديدة للمهندسين والموظفين للبدء فيها من اليوم.

خرج المهندس خالد وأحضر إبراهيم كرسيًّا منفردًا ثم جلس أمام كرسي وليد ونظر إليه نظرة حبٍّ فيّاضة، وسأله بصوتٍ حنون:

- كيف أشكرك؟!

أجاب وليد متعجبًا:

- علام تشكرني يا صديقي؟!

ابتسم إبراهيم متعجبا ثم قال:

- علام أشكرك؟! أنت تستحق الشكر على الكثير يا وليد .. على شركتنا التي كادت أن تغرق وبعقلك أنقذتها، وعلى أبي الذي كاد أن يموت حزنًا وكمداً وبقلبك أنقذته، وعلى حالي الذي تبدل للأحسن بعد معرفتك يا وليد .. أنت لست عبقريًّا كما يقول أبي، فالكثير من العباقرة قد فشلوا حتى في إدارة حياتهم، بل أنت ساحر، نعم ساحرٌ جمعت حولك القلوب، وقدت خلفك العقول، وروضت لنا الصعاب.

- أتدري يا صديقي؟! إن الساحر الحقيقي هو أنت يا إبراهيم .. فلولاك ما كنت وليد الذي تراه الآن، لولاك يا إبراهيم لبقيت ذلك الشاب المعاق الذي انهدم مستقبله أمام عينيه، ذلك الشاب الذي رأى حسرة أبيه، وتفجع قلب أمه عليه، ذلك الشاب الذي عاد إلى الحياةِ من جديد بفضل الله أولًا ثم بفضلك أنت يا إبراهيم .. لقد فعلت معي الخير والله جزاك به، فأنت تستحق الخير كله يا صديقي.

ثم سالت دموع وليد على خديه، فاحتضنه إبراهيم بقوةٍ قائلًا:

- نعم الأخ أنت يا وليد .

- ونعم الصديق أنت يا إبراهيم .. وإذا كنت فقدت رجليّ، فأحمد الله أني ربحتك أنت يا صديقي.

وإني لأرى الأيام تمر سريعًا، وبوادر النجاح تظهر من بعيد، فها هو المهندس خالد قد سافر إلى الصين وتعاقد على معدات وماكينات، وأجهزة حديثة، وقد سافر معه نخبة من المهندسين والفنيين الأكفاء للتدريب على هذه المعدات والأجهزة، وأخذ الخبرة من الشركة الصينية، وقد استمر التدريب لمدة أسبوعين متواصلين، وقد كان من المفترض أن يستمر لمدة شهر، لكنهم أصروا ونافسوا أنفسهم على إنجاز المهمة في أسرع وقت حتى لا يكلفوا الشركة نفقات أكثر، فقد تعلموا التضحية وتحمل الصعاب، وقد عادوا بالفعل محملين بالعلم والمهارة، والحماسة تقتلهم لبدء العمل واستخراج المنتج الخالص بأيديهم وعقولهم، وقد كانت الاحتفالية صاخبة عندما تم إنتاج أول دراجة نارية طبقًا للمواصفات الحديثة سرعة – كماليات وشعر الجميع أن جهودهم لم تذهب هباءً، وأن من جد وجد.

وعلى صعيدٍ آخر، استأجرت الشركة قطعة أرض واسعة المساحة، أقامت عليها معرضًا كبيرًا لمنتجاتها المتطورة، والتي اجتمعت عليها حشود المستهلكين رغبةً في شرائها، مما دفع الشركة إلى زيادة الإنتاجية من الدراجات، وفتح معارض جديدة لها في مناطق عديدة، كما خصصت قسمًا داخل هذه المعارض لقطع الغيار الأصلية للدراجات وكذلك لكمالياتها.

ومن ناحيةٍ أخرى، اشترت الشركة شاحنتين كبيرتين لنقل منتجاتها إلى جميع أنحاء الجمهورية، مما أعطاها ميزة التوصيل والنقل، وساهم في توزيع المنتج على أوسع نطاق.

فضلًا عن هذا، فقد استقبلت الشركة إيميلات من شركات استيراد كبرى تبدي إعجابها بالمنتج، وترغب في عقد صفقات مع الشركة، واستيراد كميات كبيرة منها، وبالفعل تم توقيع العقود، وبدأت الشركة في تصدير المنتج مما رفع نسبة الأرباح إلى عنان السماء.

كل هذه التطورات الإيجابية والأرباح في فترةٍ زمنيةٍ قياسية، وتم إعادة الرواتب إلى وضعها الطبيعي بعد خمسة شهورٍ فقط، وقبل المدة المتفق عليها، مع وعدٍ بالزيادة في الفترة القادمة، الأمر الذي أكمل سعادة الجميع وأتم بهجتهم.

إن أول خطوات الإخفاق والتدهور نحو الفشل هو الإعجاب بالحال، وعدم السعي للأفضل حتى وإن كنت الأفضل.. وليد لم يغره التفوق والنجاح الذي وصلوا إليه، بل سعى ينمي معرفته ويطور أفكاره باحثًا عن وسائل تساعده على تطوير المنتج أكثر فأكثر، فبعدما تم تزويد الدراجات بالكماليات، أراد أن يضيف إليها مزايا أكثر تجعلها تفوق أقرانها من المنتجات الأخرى، وقرأ ذات يومٍ عن السيارة الناطقة، وأعجبته الفكرة جدًّا، وسعى لتطبيقها في الدراجات البخارية، فاستدعى بصفته عضوًا في مجلس الإدارة أحد أكفأ المهندسين، واستشاره في الفكرة التي أعجب بها أيضًا.

اقترح وليد الآتي: إذا كانت الحمولة ثقيلة على الدراجة تقول:"حمولة زائدة، يرجى تخفيف الوزن حفاظًا على سلامتك.

ثانيًا: في حالة ازدياد السرعة بصورةٍ كبيرة، تقول:"خفف السرعة حفاظًا على سلامتك."

هذا إلى جانب تزويدها بأجهزة استشعار عن بعد كي تخبر سائقها بوجود المنحنيات أو أي عوائق قد تعيق طريقه، وتم عرض الفكرة على مجلس الإدارة، وأكد المهندسون إمكانية تنفيذها، والعمل على تطويرها، وربطها بمقياس السرعة في الدراجة كما أن تكلفتها يمكن أن تدبرها الشركة، وهذا الاقتراح الآن في طور الدراسة للتنفيذ.

وكما أن المصائب لا تأتي فرادى، فالأفراح أيضًا لا تأتي فرادى، فبعد هذا النجاح والتطور في الدراجات وما تبعه من زيادةٍ في الأرباح، وانتشار صيت الشركة، تم اختيارها ضمن أفضل ثلاث شركات مصنعة للدراجات البخارية، وكذلك حصولهم على جائزة الدولة التشجيعية في الصناعات، الأمر الذي أحدث طفرة إيجابية مادية، مكنت المهندس خالد من سداد جميع ديون الشركة للبنك، والتي كانت حِملًا ثقيلًا يعيق الشركة، وتأكل فوائده الأرباح.

ومن أجل كل هذه الأخبار السارة، أمر المهندس خالد بإقامة حفلٍ كبير غدًا، سيكون في قاعة الشركة الكبرى المخصصة للمناسبات احتفالًا بما

تم إنجازه والوصول إليه، كما أعلن عن مفاجأةٍ سارة سيعلنها خلال الحفل، مما زاد من تشويق الجميع وفضولهم لمعرفتها، ووجه حديثه إلى وليد قائلًا:

- أريد أن أنال شرف التعرف على والديك، فلا تحرمني من هذا الشرف، أحضرهما معك غدًا، فهما على رأس كبار المدعوين.

(١٣)

إنه الغد.. قد أتى بمسائه المتألق، وأرى الوفود تتسرب رويدًا.. رويدًا داخل قاعة المناسبات، ومن الجميل في بروتوكول الشركة؛ أن حضور مثل هذه الحفلات يكون بارتداء زيٍّ موحد الشكل يتمثل في حُلة رسمية وهي بدلة سوداء بقميص أبيض مما يعطي رونقًا وبهاءً للمنظر، وما أن أعلنت عقارب الساعة تمام السابعة، حتى اكتمل الحضور وامتلأت القاعة، واستعدت الميكروفونات، وتلألأت الأضواء وفاح عبير الورود.

وأرى المهندس خالد يصعد نحو المنصة وسط ترحيبٍ هائلٍ وتصفيقٍ حار ثم قال:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كل عامٍ وأنتم بكل خير، كل عامٍ وأنتم مني وأنا منكم، تعلمون أنه في كلِّ مناسبةٍ تكون أمامي ورقةٌ أقرأ منها، لكن هذه المرة، وفي هذه المناسبة، رفضت أن

يكتبوا لي أي شيءٍ، أردت أن يكون كلامي نابعًا من قلبي ووجداني.

صفق له الحضور بحرارةٍ زادت عن سابقتها ثم استطرد قائلًا:

- أشهد الله أني أحبكم في الله، فنعم الموظفون أنتم، ونعم السند، عبرنا معًا فترات عصيبة، وكنتم على قدر المسؤولية، عملتم لساعاتٍ أكثر من المواعيد الرسمية، ولم يشعر أحدكم بالضجر، لذلك كل ما حققناه وأنجزناه كان بفضلكم أنتم، وكنت قد وعدتكم بمفاجأة، ويشهد الله أنها أقل بكثير مما تستحقون، فقد قررت الشركة رفع الرواتب بنسبة عشرة في المائة لجميع المهندسين والموظفين كمكافأةٍ لما حققناه وأنجزناه سويًّا.

وما كاد الموظفون يسمعون ذلك حتى قفزوا وقوفًا مهللين مصفقين بكل ما أوتوا من قوة، ورُسمت على الوجوه ابتسامة السعادة والرضا، وتبادلوا الأحضان فيما بينهم، فيا لسعادة الإنسان عندما يحصد ما زرع، ويربح مما صنع!

استأذنهم المهندس خالد بسعادةٍ في الجلوس ثم قال:

- الحمد لله الذي استبدل حزننا بسعادة، وخسارتنا بالربح وزيادة، لكني أريد أن أشكر أحدكم على وجه التحديد، فهذا الرجل لا أستطيع أن أوفيه حقه مهما فعلت، فالفضل لله أولًا ثم له ثانيًا فيما نحن فيه، لقد كانت الشركة تخسر، فحول خسارتها للربح، وكنا

على حافة الهاوية حتى في علاقاتنا وتعاملاتنا مع بعضنا البعض، لكنه غير هذا كله، لهذا استحق عن جدارة واستحقاق أن ينال جائزة أفضل موظف بالشركة، اسمحوا لي أن أقدم لكم العبقري الأستاذ وليد متولي فليتفضل مشكورًا لاستلام الجائزة وإلقاء كلمته.

صفق الجميع للأستاذ وليد متولي سعادةً وفخرًا به، فقد علموا أن كل الأفكار والخطط الجديدة كانت منه.

وما إن نطق المهندس خالد اسم وليد حتى بدت عليه السعادة والتوتر في آنٍ واحدٍ، فلم يخبره المهندس خالد بأمر هذه الجائزة وتسلمها أمام كل هذا الجمع، وليس هذا فحسب بل وسيلقي أمامهم كلمة أيضًا، تقدم إبراهيم نحو وليد ليساعده على الصعود بكرسيه إلى المنصة، فقال وليد بتوتر:

- ما هذه المفاجآت يا إبراهيم ؟! أليس من الواجب أن تخبرني؟!

- لقد تفاجأت مثلك يا صديقي، فلم أكن أعلم بهذا.

وصلا إلى المنصة، وقام المهندس خالد باحتضان وليد ثم أعطاه الجائزة وصافحه، وتم التقاط صور تذكارية لهما ثم أعطاه المهندس خالد الميكروفون، فقال والابتسامة تكسو محياه:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، يا لها من سعادةٍ وفخر أن أكون واحدًا منكم! فهذه هي جائزتي الكبرى، وأشكر المهندس خالد على

هذه الجائزة العظيمة، والحقيقة أنه لا يستحق هذه الجائزة إلا هو، لكننا قد اعتدنا منه الإيثار، وبما أنه اختارني لهذه الجائزة، فأنا أهديها إلى أربعة أفراد كانوا لي العون والسند.

صمت لثوانٍ ثم بهدوءٍ رفع ناظريه نحو أبيه وأمه قائلًا:

- أبي وأمي اللذان وقفا معي في محنتي، ساندني وساعداني.

يقول ذلك والدموع في عينيه يحاول إخفاءها، لكنه لم يستطع، فنزلت تجري سعادةً على خديه، وكذلك بكى والداه، مد يده يجففها، والجميع يستمع إليه بتأثرٍ وانتباهٍ شديدين ثم أكمل قائلًا:

- أتذكر يا أبي الفترة التي تعرضت فيها للحادث وأقعدني؟! أتذكر عندما أخبرتني أن الله ما أخذ إلا ليعطي وما منع إلا ليمنح؟! أتذكر رؤياك ورؤياي؟! فسبحان من أخذ وأعطى، فنعم الأب أنت، ونعم الأم أنتِ يا أمي، تحملتِ عجزي، وتعبي، وقدمتِ لي كل العون كي لا تجعليني أحتاج شيئًا، فجزاكما الله عني خير الجزاء.

أما الثالث: فهو رجل مَنّ الله عليّ به، قد أكون خسرت قدميّ، لكنها كانت حادثة رائعة، ربحته فيها، إنه صديقي وسندي وأخي، ما تركني في محنتي بالرغم من عدم معرفته بي، إنه النموذج المثالي للإنسان الشهم والنبيل، إنه حبيبي وصديقي إبراهيم .

وأما الرابع: فهو الدكتور علي .. ليس موجودًا معنا لكن هذا لا ينقصه قدره، ولو كنت أعرف بشأن هذا التكريم لما تأخرت أبدًا في دعوته، فهو أبي الثاني، وهو من ساندني ودلني على الطريق الصحيح، فجزاه الله خير الجزاء.

وأريد أن أقول أمرًا أخيرًا؛ إن مكوث الشركة في الخسارة والانحدار في فترتها السابقة، لم يكن بسبب تدني مستوى أفرادها، بل كان سببه الاستسلام للخسارة، والتسليم بها كأمرٍ واقع، إن أكبر هزيمة يتلقاها الإنسان، وكذلك المؤسسات؛ هي الاستسلام للسقوط، وسأضرب لكم مثالًا على نفسي، ليس لأثبت أني قوي وناجح، بل سأضربه على نفسي لأنني صورة حية مرئية أمامكم، مثال لشابٍ مر بحادثٍ جعله عاجزًا عن الحركة، لا تستطيع أن تخطو قدماه خطوة واحدة، على عكس أحلامه وطموحاته التي كانت تجري أمامه وتطير فوقه، في لحظةٍ تيقنت أنها نهايتي، سأعيش على كرسيٍّ متحرك أنتظر الموت، فوسيلة الحركة قد تعطلت، ولم يكن لدي ثقة كافية بنفسي، لكن كان لدي ثقة بربي، ثقة أنه رب رحيم، ثقة أنه رب الخير، وأن حادثتي هذه تحمل وراءها حكمة لا أعلمها، فسلمت بمراد الله، وجدت نفسي أمام خيارين: إما اليأس والاستسلام، وإما أن أكافح بما تبقى لي من قدرات وأحسن استغلالها، وقد اخترت الثانية، فكافحت وناضلت، وخلعت عباءة الاستسلام ثم طرحتها أرضًا، وها أنا اليوم بفضل الله أحصل على جائزة أفضل موظف، ونصيحة مني إلى كل واحدٍ منكم، اطرح الاستسلام، وارفض اليأس، وحارب الخمول، وقاتل الفشل، فأنت

أقوى مما تتصور، أنت قادر على النجاح، أنت خليفة الله في أرضه، والله لا يرضى لخليفته الضعف ولا الاستسلام.

صفق الجميع لهذا المثال المكافح، ذلك الشاب المناضل، إنه بالفعل يستحق الجائزة، ويستحق كل الحب والتقدير الذي له في قلوب الناس.

بهذه الكلمات الحماسية، انتهى كلام وليد ببالغ الفرح والسرور، فتقدم بالكرسي، وتقدم إبراهيم ليساعده على النزول من المنصة، واستقبله والداه بالأحضان والقبلات، وجاء المهندس خالد ليرحب بوالدي وليد مرددًا عبارات الثناء على حسن التربية والأخلاق، وأنه تشرف بالتعرف عليهما.

ووسط أجواء الفرحة والسعادة، نظر المهندس خالد إلى وليد قائلاً:

- لدي مفاجأة لك يا عبقري.

رد وليد مندهشًا:

- مفاجأة!! أي مفاجأةٍ بعد هذا الحفل الرائع، وحصولي على جائزة الموظف المثالي؟! دعني أخمن.

ثم أكمل ساخرًا:

- هل اخترت لي عروسًا؟

ضحك المهندس خالد قائلًا:

- هل أنا مهندس أم خاطبة؟ أم أن الجائع يحلم بسوق الخبز؟!

ووسط ضحك الجميع.. متولي و صفية و وليد و إبراهيم .. يخرج المهندس خالد مظروفًا قائلًا:

- خذ هذا المظروف.

- وما هذا؟

- بداخل هذا المظروف ثلاث تذاكر طيران لك ولأبيك وأمك لحج بيت الله الحرام.

زهل وليد لروعة الخبر، وكاد يطير لفرط سعادته، فقد تحقق حلمه الذي ظن أنه لن يتحقق، فجذب المهندس خالد واحتضنه باكيًا وقال بصوت عالي لقد حققت لوالداي أمنيتي لهما، ظننت أن هذه الأمنية أصبحت حلمًا مستحيلًا، بارك الله فيك، بارك الله فيك.

قال المهندس خالد لكم حققت لي أماني يا وليد بإعادة الشركة لطريق النجاح، وتفوقها على قريناتها، أليس من العيب ألا أحقق لك أمنية واحدة.

انسل المهندس خالد من أحضان وليد ثم ما لبث متولي أن احتضن المهندس خالد شاكرًا إياه على معروفه، وداعيًا له.

جفف وليد دموعه ثم نظر إلى المهندس خالد قائلًا:

- أتعلم أن ذهاب أبي وأمي لأداء فريضة الحج كان حلمي الأكبر بلا منازع؟!

تحدث المهندس خالد مبتسمًا:

- نعم أعلم.

رد وليد متعجبًا:

- وكيف علمت؟!

- لقد أخبرني إبراهيم بحلمك هذا، وكما كنت لنا المصباح السحري الذي حقق أحلامنا، فلابد أن نكون لك كذلك.

نظر إبراهيم إلى وليد قائلًا:

- مباركٌ عليك الحج يا حاج وليد .

- والله يا إبراهيم إن لساني يعجز عن شكرك، لكن والله لن يعجز عن الدعاء لك أمام الكعبة.

ثم أخرج المهندس خالد مظروفًا آخر وأعطاه لــ إبراهيم قائلًا:

- وأنت يا إبراهيم .. لقد حجزت لك معهم تقديرًا لك لجهدك وتعبك معي طوال الفترة السابقة.

ثم نظر إلى وليد قائلًا:

- كما أنه ما كان للخل أن يترك خليله.

تفاجأ إبراهيم وفرح فرحًا شديدًا ثم احتضن أباه بسعادةٍ غامرة قائلًا:

- بارك الله فيك يا أبي.

– وفيك يا إبراهيم .. فنعم الابن أنت.

رد وليد بسعادة:

– مبارك يا صديقي، فأنت تستحقها.

قام إبراهيم باحتضان وليد قائلًا:

– بارك الله لي فيك يا صديقي.

تحدث المهندس خالد قائلًا:

– أتعلم يا وليد ؟! إن إبراهيم هو من اقترح عليّ ذهابكم لأداء فريضة الحج كمكافأةٍ لك، وهو من قام بإنهاء جميع الإجراءات الخاصة بجواز السفر، وكان في غاية السعادة لأنك ستحقق حلمك بحج والديك، ومع علمي بالجهود المشتركة بينكما، وأيضًا شدة ارتباطكما، أرسلت إليه من ينهي إجراءاته دون علمه حتى يسعد معك، ويكون بقربك.

قال وليد و صفية و متولي معًا:

– جزاك الله خيرًا يا سيادة المدير، وأدام الله عليك نعمه.

ومع مضي الوقت، دقت ساعة الرحيل، وغادر الجميع، أحضر إبراهيم سيارته ليُقِل وليد وأسرته إلى منزلهم، بعد أمسيةٍ رائعة متميزة، وعندما وصلوا نزل متولي و صفية وتقدم إبراهيم نحو وليد وفتح له الباب ليساعده على النزول، لكن وليد قال بلطف:

– اصعد يا إبراهيم .. سنذهب سويًّا إلى مكانٍ قريب.

ونظر نحو أبيه قائلًا:

– اسمح لي يا أبي، أن أتأخر قليلًا.

– صحِبتك السلامة يا ولدي.

ركب إبراهيم سيارته بعدما ودع متولي و صفية ثم استدار بالسيارة وانطلق ليسأل وليد :

– إلى أين يا عبقري؟

أجاب وليد مبتسمًا:

– إلى أبي الثاني، وملهمي الأكبر.

– الدكتور علي ! كم أنت أصيل يا وليد ! ولا أخفيك سرًّا، لقد اشتقت إليه أيضًا.

استلقى وليد برأسه على كرسي السيارة، كأنه استرجع الماضي وذكرياته مع الدكتور علي قائلًا:

– نعم الرجل علمًا وأدبًا.

وصلا إلى المستشفى، وصعدا إلى مكتب الدكتور علي الذي خرجت منه ممرضة وأغلقت الباب خلفها، فاستوقفها وليد معتذرًا:

– هل الدكتور علي موجود؟

فأجابت:

– نعم.

ثم سألها بمكرٍ قائلًا:

– هل معه أحد؟

أجابت مبتسمة:

– لا.

ثم انصرفت.

قام إبراهيم بدفع وليد إلى الباب، وبدأ وليد يطرقه كأنه يضرب طبلة بطريقةٍ إيقاعية محترفة، وسمع صوتًا ينادي بغضب:

– تفضل.. تفضل.

ولكن أسمعت لو ناديت حيًّا ولا حياة لمن تنادي!

فاستمر وليد في طرق الباق الذي يتراقص تارة من جمال الطبلة، ويتثبت تارة خوفًا من صياح الدكتور علي وغضبه، ولما طفح كيل الدكتور علي، قام غاضبًا كقطارٍ بخاريٍّ تتصاعد أبخرته من أنفه، وما أن فتح الباب حتى وجد وليد الذي انطلق بالضحك المملوء بالشوق، فقال الدكتور علي ضاحكًا:

– أما زلت مهرجًا أيها الولد؟!

أجاب وليد بسخرية:

– أي ولدٍ هذا الذي تتحدث عنه؟!

والتقط الجائزة من كرسيه قائلًا:

– هذه جائزة أفضل موظف، حصل عليها من تدعوه بالولد.

رد علي ساخرًا:

– ستظل ولدًا ولو حصلت على جائزة نوبل.

ثم مال عليه واحتضنه بحرارةٍ أذابت معها مدة الفراق، واستمر الحضن لدقائق، فاح منه عبير الحب والشوق بينهما،وقال وليد :

– اشتقت إليك يا أبي.

رد الدكتور علي وسط حرارة الأحضان قائلًا:

– شوقي إليك يفوق وصفي يا بني، كيف حالك يا وليد ؟

– الحمد لله يا أبي، في أحسن حال، ولا ينقصني غير رؤياك.

– دمت طيبًا يا بني.

تحدث إبراهيم قائلًا:

– كيف حالك يا دكتور علي ؟

أجاب الدكتور علي مبعدًا وليد عن حضنه:

– اعذرني يا إبراهيم ، فقد تشبث هذا بحضني وكأنني أمه.

ثم احتضن إبراهيم قائلًا:

- كيف حالك أيها الطيب الخلوق؟

- بخير حالٍ والحمد لله، كيف حالك أنت؟

- الحمد لله يا بني، أنا في زحامٍ من النعم، ولا يقوى حمدي على شكرها.

رد وليد معجبًا:

- فنان في كل شيءٍ حتى في قول الحمد لله.

تحدث الدكتور علي ضاحكًا:

- دون ما أقوله حتى تتعلم.

- يزيدني فخرًا وشرفًا أن تكون معلمي.

عقب إبراهيم قائلًا:

- أتعلم يا دكتور علي ؟! أثناء تسلم وليد للجائزة، أثنى عليك خير الثناء، ووصفك بأبيه الثاني.

تحدث وليد مازحًا:

- اصمت يا إبراهيم .. سيصيبه الغرور ولن نستطيع حتى أن نتحدث إليه.

رد الدكتور علي قائلًا:

- الغرور لا يصيب إلا الجاهل يا ولد، وأنا لست بجاهل.

- نظر وليد لإبراهيم قائلاً بتهكم ألم أقل لك يا إبراهيم إنه فنان في كل شيء؟!
- ضحك الدكتور علي وبعد أن هدأ ضحكه، قال:
- الآن يا وليد .. أرأيت عاقبة الصبر؟! أرأيت أن الله كريم ورحيم؟!
- الحمد لله رب العالمين، فقد أعطاني الله أكثر مما كنت أتصور، فالله رب عطاء، وليس رب حرمان.

الخاتمة

بهذه الكلمات تنتهي روايتي لتؤكد على أهمية الطموح والصبر والمثابرة ورفض الاستسلام، وكذلك قدرة الإنسان على تحمل الصعاب، كما توضح أن أي مشكلة نتعرض لها يمكن حلها وتخطيها؛ أما سمعت قول ربك الرحمن الرحيم

لا يكلف الله نفسا إلا وسعها صدق الله العظيم.

وقس على شاكلة هذه الرواية كل محنة أو مشكلة تمر بها، فطالما أن المصيبة أو المحنة التي وقَعَت عليك ليس لك دخل بها، وليست بسبب تقصير منك، فاعلم أنه باب سده الله سبحانه و تعالى بحكمته؛ ليفتح لك بابًا آخر برحمته سيكون أفضل منه سواء كان هذا الباب المسدود وظيفة طردت منها، أو كلية كنت ترغب في الالتحاق بها ولم توفق، أو شخص أحببته ولم يُكتب لكم البقاء سويا، وتيقن دائمًا أنه لو كان خيرًا لبقى، ورب خيرٍ لم تنله كان شرًا لو أتاك، فالحمد لله على ما قدر وأراد،

فالمهم أن يسعى الإنسان من جديد، وينهض بعد عثراته، فأنت أقوى مما تتصور، أنت قادر على النجاح، أنت خليفة الله في أرضه، والله لا يرضى لخليفته الضعف ولا الإستسلام.

تمت بفضل الله.

الكاتب

أحمد عبد الفتاح

٢٠٢١